فى
التنوير الإسلامى
((٤١))

صُورَة الإسْلام فى التراث الغربى

(دراسات ألمانية)

ترجمة
أ. ثابت عيد

في التنوير الإسلامي ٤١

صورة الإسلام في التراث الغربي

(دراسات ألمانية)

ترجمة

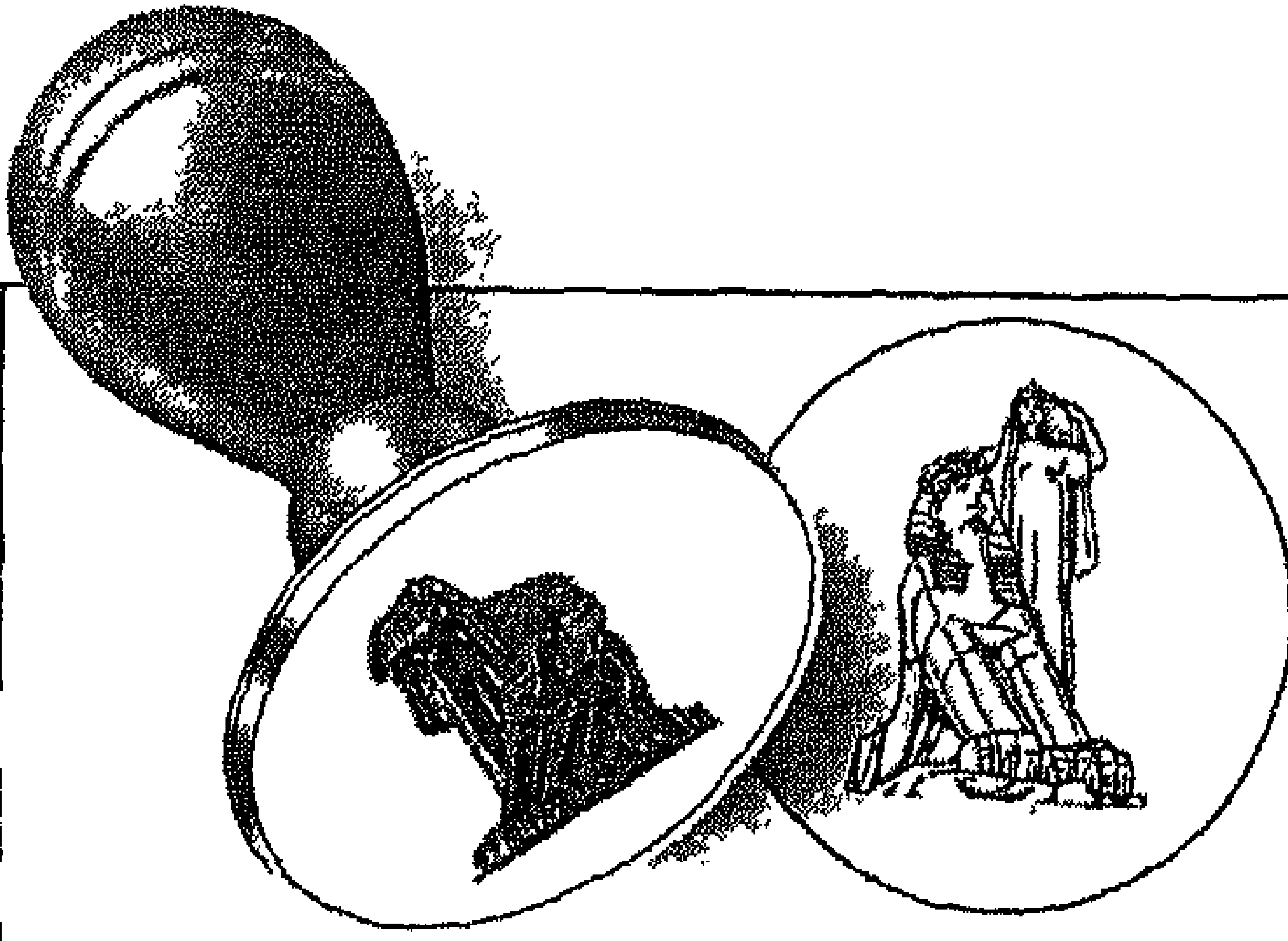
أ. ثابت عيد

تقديم

د. محمد عمارة



نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨



اسم الكتاب	صورة الإسلام فى التراث الغربى
اسم المترجم	ا . ثابت عيد
اشراف عام	داليا محمد ابراهيم
تاريخ النشر	نوفمبر ١٩٩٩
رقم الإيداع	١٥١٧١ / ١٩٩٩م .
الترقيم الدولى	I . S . B . N 977 - 14 - 1137 - 3
الناشر	نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .
المركز الرئيسى	٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة . مدينة السادس من أكتوبر . ت: ٣٣٠٢٨٧ / ٠١١ (١٠ خطوط) فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦
مركز التوزيع	١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٠٢/٥٩٠٨٨٩٥ فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥ ص.ب: ٩٦ الفجالة .
إدارة النشر	٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤ فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦ ص.ب: ٢٠ إمبابة .

الفهرس

تمهيد

بعض الناس يختزل - ومن ثم يسطِّح ويزيِّف - موقف الغرب من الإسلام ، وذلك عندما يرده إلى خوفه من ظاهرة «التشدد والعنف» ، اللذين تمارسهما بعض الجماعات باسم الإسلام . . أو إلى وجود بعض النظم المستبدة التى تستر الاستبداد بشعارات ورموز الإسلام . .

لكن أصحاب هذه النظرة يتجاهلون- ولا أقول يجهلون- أن هذا الموقف العدائى لدى كثير من مؤسسات الفكر والدين والسياسة فى العالم الغربى ، هو موقف قديم . . وسابق بقرون كثيرة على ظاهرة العنف ونظم الاستبداد التى ترفع شعارات الإسلام . .

● فالقائد والكاتب الإنجليزى «جلوب باشا» - الذى ظل قائداً للجيش الأردنى حتى سنة ١٩٥٦ م - والذى كتب عن الفتوحات العربية ، قد كشف عن كبد الحقيقة عندما أرجع تاريخ مشكلة الغرب مع الإسلام إلى ذات اللحظة التى ظهر فيها الإسلام ، فقال : «إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد»! .

وهى عبارة جديرة بإيقاظ الجاهلين وردع المتجاهلين . .

● وأكبر وأخطر مؤتمرات الكنائس الغربية ، الذى انعقد فى «كولورادو» - بأمريكا - سنة ١٩٧٨ م ، لتنصير المسلمين ، قد أرجع هذا العداء الغربى المحموم للإسلام ، إلى ما رآه «الطبيعة

الإسلامية المناقضة للنصرانية» ـ كما فهمتها الكنائس الغربية ـ فقالت مقررات هذا المؤتمر : «إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية . . وإن النظام الإسلامى هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعياً وسياسياً . . إنه حركة دينية معادية للنصرانية ، مخططة تخطيطا يفوق قدرات البشر . . ولابد من مئات المراكز ، التى تؤسس حول العالم ، بواسطة النصارى ، للتركيز على الإسلام ، لفهمه ، والتعامل معه ، واختراقه فى صدق ودهاء» .

● ونفس الموقف ا لذى يتخذه قساوسة التنصير من الإسلام ، نجده لدى دوائر الفكر الاستراتيجى الغربى من العلمانيين ، هذه الدوائر التى قدمت حيثيات إعلانها أن الإسلام هو العدو ، الذى حل محل «إمبراطورية الشر الشيوعية» ، والذى تتوجه إليه وإلى عالمه وأمته قوة حلف شمالى الأطلنطى وآلته الحربية ، عندما يتجاوز هذا الحلف نطاق «الأرض المشتركة» لأعضائه ، إلى ما يسمى «المصالح المشتركة» لهؤلاء الأعضاء! . . فإذا بهذه الحيثيات ـ حيثيات العداء الغربى للإسلام ـ نابعة ـ برأيهم ـ من طبيعة الإسلام ، التى استعصت وتستعصى على «العلمنة» ، أى على الذوبان فى النموذج الحضارى الغربى ، والتبعية للمركزية الحضارية الغربية . . ولقد عبرت مجلة «شئون دولية» ـ البريطانية ـ يناير سنة ١٩٩٠ م ـ عن هذه الحيثيات عندما قالت : «لقد شعر الكثيرون فى الغرب بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفيتى . . ولقد كان الإسلام جاهزاً فى المتناول! . . فالإسلام مقاوم للعلمنة ، وسيطرته

على المؤمنين به قوية ، وهى أقوى الآن مما كانت قبل مائة سنة مضت ، ولذلك فهو ـ من بين ثقافات الجنوب ـ الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة ، ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحدٍّ فعلى وحقيقى للمجتمعات الغربية . .» .

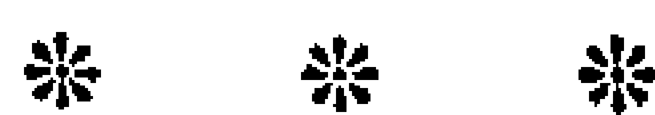
● والمفكر الاستراتيجى الأمريكى ـ الرئيس الأسبق ريتشارد نيكسون ـ يذكر ـ فى كتابه «الفرصة السانحة» ـ أن العداء للمسلمين هو الأمر الأكثر شيوعاً ، والأسوأ صورة لدى جمهور الأمريكيين «فكثير من الأمريكيين يتصورون أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة ، ودميون ، وغير منطقيين ويعتقدون أن سيوف محمد وأتباعه هى السبب فى انتشار الدين الإسلامى فى آسيا وإفريقيا ، وحتى أوروبا . . ولذلك ، فإن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء . . وليس هناك صورة أسوأ ، فى ذهن وضمير المواطن الأمريكى ، من صورة العالم الإسلامى . .»! .

وهكذا . . فعداء المشروع الغربى للإسلام ـ وهو موقف معلن من كثيرين فى دوائر ومؤسسات صنع القرار ، وليس وهْمًا صنعته «ذهنية المؤامرة» ـ إنما يمثل مشكلة أسبق وأعمق من الوقائع الطارئة والآنية ، التى أثمرتها حركات العنف والتشدد باسم الإسلام . . أو نظم الاستبداد العربية والإسلامية المعادية لحقوق الإنسان . . أو حتى الاحتكاك العنيف ـ فى العصر الحديث ـ بين الاستعمار الغربى وعالم الإسلام . .

إننا أمام موقف غربى قديم . . متجذر فى الذهنية الغربية . . ومتجسد وشائع فى الثقافة الغربية ـ الدينية ، والأدبية ،

والتاريخية ، والسياسية . . وحتى فى «الفلكلور» ـ ولهذا الموقف أبعاده الاقتصادية والعسكرية أيضاً . .

إنهم يعودون به أولاً إلى ظهور الإسلام ، وانتشاره الذى دخلت به شعوب نصرانية فى دين الإسلام . . وإلى الفتوحات الإسلامية ، التى حررت الشرق من الاستعمار الغربى ـ «الإغريقى ـ الرومانى» ـ الذى دام عشرة قرون ـ من الإسكندر الأكبر (٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق .م) وحتى هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١ م) ـ وإلى الفروسية الإسلامية التى اقتلعت الاستعمار الاستيطانى الصليبى ، الذى دام قرنين من الزمان (٤٨٩ ـ ٦٩٠ هـ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١ م) ـ وإلى حركة التحرر الوطنى العربية التى جعلت الشمس تغرب عن الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية . . وأخيراً إلى خوف الغرب من اليقظة الإسلامية المعاصرة ، التى تسعى لتحرير ثروات العالم الإسلامى من قبضة الاستغلال الغربى . . وإلى الاستقلال الحضارى ، والتكامل السياسى لعالم الإسلام . . تلك هى أبعاد وأعماق الموقف الغربى من الإسلام . .



وإذا كان من العبث ـ بل والغباء ـ أن نتوهم أن الغرب ، فى موقفه من الإسلام ، إنما يمثل كتلة واحدة صماء ، وأن نغفل عن أن فى الغرب علماء ومفكرين وتيارات فكرية وسياسية ، بل ومؤسسات ، تحاول أن تتفهم الإسلام ، وأن تتخذ مواقف منصفة من قضايا المسلمين . . فإن البحث فى كتابات هؤلاء العلماء والمفكرين عن الخلفيات الفكرية لموقف الغرب من الإسلام هو

واحد من مهام جهود الاستنارة الفكرية ، التى لابد أن ينهض بها العقل العربى والمسلم فى واقعنا الفكرى الراهن . .

فحتى نفهم أبعاد الموقف الغربى من الإسلام . . وخلفيات الصورة الغربية عن الأمة الإسلامية . . ولمعالجة هذه المشكلة بعيداً عن السطحية والاختزال والتزييف ، نحتاج إلى «شهادات غربية» من العلماء والمفكرين الغربيين المنصفين ، الذين تناولوا هذا الموضوع . .

وفى هذا الإطار ، نقدم إلى الباحثين والقراء هاتين الدراستين ، عن «صورة الإسلام فى التراث الغربى» . .

الأولى : كتبها المفكر الألمانى «هوبرت هيركومر» ، عن «صورة الإسلام فى الأدب الألمانى الوسيط» . .

والثانية : كتبها المستشرق الألمانى «جيرنوت روتر» ، عن «الإسلام والغرب ـ الجوار المفقود» . .واللتان ترجمهما عن الألمانية ـ مع تعليقات غنية ـ باحث مصرى نابه ـ يعيش فى «زيوريخ» بسويسرا ـ هو الأستاذ / ثابت عيد .

والله نسأل أن يجعل فى هذا العمل طاقة تنويرية تعين العقل العربى والمسلم على إدراك أبعاد هذه القضية ، لترشيد الجهد الإسلامى الساعى إلى جعل عالمنا «منتدى حضارات» ، تتفاعل فيما هو مشترك بينها ، وتتمايز فى الخصوصيات الثقافية ، دونما تبعية أو انغلاق[1] .

د. محمد عمارة

---

(١) انظر كتابنا (الغارة الجديدة على الإسلام) طبعة دار الرشاد القاهرة سنة ١٩٩٨ م . وكتابنا (الجديد فى المخطط الغربى تجاه المسلمين) طبعة دار الوفاء القاهرة سنة ١٩٩٧ م .

تقديم المترجم

كاتب هذا المقال هو المفكر الألمانى الكبير هوبرت هيركومر Hubert Herkommer - أستاذ الأدب الألمانى بجامعة برن بسويسرا . وهو من أعظم مفكرى الغرب الذين قابلتهم وتعرفت عليهم عن قرب حتى الآن . إعجابى به لا حدود له ، وتقديرى واحترامى له لا حدّ لهما . وينبغى هنا أن نوضح مستويين جد مختلفين من الإعجاب : فالغرب بصفة عامة أعلن عن إعجابه وتقديره لسلمان رشدى وتسليمة نصرين . الأول سمّى رسول الإسلام (ﷺ) فى روايته «آيات شيطانية» Mahound وتعنى : محمد الكلب . والثانية تطالب بإلغاء القرآن . هذا مستوى . والمستوى الثانى هو مستوى إعجاب كاتب هذه السطور - وهو عربى مسلم - بهيركومر وأنا مارى شيمل وهانس كينج Hans Kueng (راجع هانس كينج ، كيف نتعامل مع التطرف الدينى ، ترجمه عن الألمانية وقدّم له ثابت عيد ، الحياة ، ملحق آفاق ، ٣١ أكتوبر (تشرين الأول ١٩٩٣) . الثلاثة من عمالقة الفكر الغربى الحديث ، تربطنى بهم علاقة روحانية وطيدة . لم يشتم أحدهم المسيح ، كما شتم رشدى محمداً عليه السلام ، ولم يطالب أى منهم بإلغاء الأناجيل ، كما طالبت تسليمة نصرين بإلغاء القرآن . ولو علمت عن أحدهم شيئاً من ذلك ، لسقط من نظرى ، ولفقد تقديرى واحترامى . إعجابى بهذه الشخصيات ينبع من كونهم يرون ما لا يريد معظم الغربيين أن يروه . يرون ضرورة تحاور

الحضارات ، وأهمية وقف التصارع بين الديانات . إنهم جميعاً عمالقة كبار تجمعهم صفات مشتركة ، منها : قوة الشخصية ، والشجاعة ، والذكاء ، وسعة الاطلاع ، والعدل ، والتسامح ، واحترام النفس واحترام الآخرين ، وفصاحة اللسان . ونظرا لثقتهم بأنفسهم ، وقوة شخصيتهم ، فهم ليسوا بحاجة إلى الطعن فى الإسلام ، وتصيد أخطاء المسلمين تحت مظلة البحث العلمى ، حتى يشعروا بالقوة والعظمة . فالإنسان القوى ليس بحاجة إلى التقليل من شأن الآخرين ، وتصغيرهم ، حتى يشعر بقوته وعظمته . الإنسان القوى متفتح على العالم والآخرين ، لا يجد فى نفسه ضعفا أو خوفا من الآخر . بل تطغى على نفسه مشاعر إنسانية جياشة تدفعه إلى التعرف على الآخر ، دون خوف أو هيبة ، والتعايش معه دون حذر ، والاتصال به دون تحفظ .

هوبرت هيركومر وهانس كينج وأنّا مارى شيمل نماذج مشرفة حقا فى تاريخ الفكر الغربى الحديث . إنهم جميعا يقفون على النقيض من تيار غربى آخر ، صناعته هى الطعن فى الإسلام ، ورسالته هى تخويف الشعوب الغربية من المسلمين الإرهابيين ، وهمه الأكبر هو تصيد أخطاء المسلمين والتهويل منها ، وربط الإسلام بكل ما هو سيئ وقبيح . تيار لا يريد أن يعترف بأخطاء الماضى . بل هو يتجاهل تماماً التاريخ العريق لمطاعن الغربيين فى الإسلام ، الذى عالجه نورمان دانيال فى كتابه «الإسلام والغرب» . تيار لا يسعى إلى الحوار مع الإسلام ، ولا يهمه أن

يتحقق السلام بين الأديان . وشتان بين أصحاب هذا التيار وبين عمالقتنا الثلاثة هيركومر وشيمل وكينج .

نعود إلى قولنا بأن احترام الغرب وتقديره لسلمان رشدى وتسليمة نصرين شيء ، واحترامنا وتقديرنا لشيمل وهيركومر وكينج شيء آخر . نحن نحترم عمالقة محترمين والغرب يحترم أشخاصاً أهانوا المسلمين ، وشتموا رسول الإسلام (ﷺ) .

وبعكس التيار الغالب أو السائد فى الغرب اليوم ، القائل بأن الدين ينافى العقل ، وهو تيار كان أبو العلاء المعرى قد عبّر عنه بقوله :

«اثنانِ أهلُ الأرضِ ـ ذو عقلٍ بلا
دينٍ وآخرُ ديّنٌ لا عقلَ له»

نجد أن هيركومر وكينج وشيمل فى غاية التدين وقمة العقلانية .

صفة أخرى تجمع هؤلاء العباقرة الثلاثة ، هى أنهم سبقوا عصرهم بعشرات ، إن لم يكن مئات السنين . إنهم من كبار المطالبين بالحوار بين الإسلام والغرب . ويكفى أن نذكر نظرية كينج القائلة : «لا سلامَ عالميا ، دون سلام بين الأديان» . وشيمل لم تكف عن مطالبة الشرق الإسلامى والغرب بنبذ الخلافات وفتح صفحة جديدة . وهيركومر يدعو أصحاب كلتا الحضارتين ـ الإسلامية والغربية ـ أن يأخذوا ويقتبسوا من الحضارة

الأخرى كل ما هو نافع ومفيد وجميل ، و هو أيضاً من كبار دعاة التعايش والتفاهم والتسامح بين الغرب والشرق .

وهيركومر هو أيضاً أحد كبار مفكرى الغرب الذين أنصفوا الإسلام وحضارته . وهو فى ذلك يختلف مع أصحاب تيار «المركزية الأوروبية» الذين يعتبرون أوروبا مركزاً للعالم ، ويرون أن الحضارة الإنسانية بدأت فى أثينا الأوروبية ، وظلت قائمة فى أوروبا حتى يومنا هذا . و هم ينكرون فضل بقية الحضارات الأخرى ، ويميلون إلى نفى صفة الإبداع عن الحضارة الإسلامية ، ويحللون كل شىء فى تاريخ العلوم الإسلامية بأسلوب يقود فى النهاية إلى الأصل الأوروبي ، ويصب فى هذا «النهر الخالد» ، كما يقول محمد عابد الجابرى .

وكما يشير هانس كينج ، فالحوار مع الآخر لا يعنى ولا يتطلب التنازل عما يؤمن به المرء من معتقدات . من هذا المنطلق ينظر هوبرت هيركومر ـ المسيحى الديانة ـ إلى الإسلام نظرة تبجيل واحترام وتقدير ، وحبّه للإسلام ، واحترامه للحضارة الإسلامية ، جعلاه يطرح فى محاوراتى معه السؤال الملح : لماذا تأخر المسلمون؟

ويرى هيركومر أن افتقاد بعض المستشرقين لحب الشرق الإسلامى ، جعلهم لايرون فى الإسلام ، إلا العيوب والمساوئ . ويوضح موقفه هذا قائلاً : إذا كان الحب يُعمى المرء عن رؤية المساوئ ، فهو يُبصّره أيضا بالمحاسن . أى أن الحب لا يغطى على المساوئ فحسب ، ولكنه يكشف أيضاً عن المحاسن . ويرى هيركومر أن الإنسانية هى أسرة واحدة ، ينبغى أن يتعايش أفرادها فى محبة

وسلام ، وعليهم أن ينبذوا العنف والخصام ، وهو يعتبر الاحتكاك الشخصى بين أصحاب الديانات المختلفة ، وأفراد الشعوب والأجناس المتباينة ، هو خير وسيلة لمحاربة الكراهية والعداء والعنصرية .

وكان هيركومر قد نشر الأصل الألمانى للمقال التالى فى عدد مجلة du السويسرية عن الإسلام ـ كبرى مجلات أوروبا الثقافية ـ الصادر فى صيف ١٩٩٤ . وقد راجعت الترجمة مع هيركومر ، وقمنا معا بعمل بعض التنقيحات الطفيفة فى النص .

* * *

- ١ -

صورة الإسلام فى الأدب الألمانى الوسيط

بقلم المفكر الألمانى: هوبرت هيركومر

١ ـ أسامة بن منقذ ونظرته إلى الأوروبيين

عايش الأمير السورى أسامة بن منقذ (١٠٩٥ ـ ١١٨٨م) ـ الذى ولد فى السنة نفسها التى أعلن فيها فى فرنسا النائية البابا أوربانوس الثانى Urban II فى مؤتمر كليرمون Clermont الكنائسى عن قيام الحملة الصليبية الأولى ـ فى حياته الطويلة خبرات جد متباينة مع جنود المسيح القادمين من بلاد الفرنجة ، والذين ساقهم نداء «هذه مشيئة الإله» Deus lo volt فى حملات صليبية متتالية عبر البحر ، لتحرير القدس وفلسطين . يحكى أسامة بن منقذ الواقعة التالية فى مذكراته :

« . . . كنت إذا زرت بيت المقدس ، دخلت إلى المسجد الأقصى ، و(كان) فى جانبه مسجد صغير ، قد جعله الإفرنج كنيسة . فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الداوية (= جنود الحراسة) ، وهم أصدقائى ، يخلون لى ذلك المسجد الصغير ، فأصلى فيه . فدخلته يوما ، فكبّرت ووقفت فى الصلاة . فهجم على واحد من الإفرنج ، مسكنى وردّ وجهى إلى الشرق ، وقال : «كذا صلِ!» . فتبادر إليه قوم

من الداوية ، أخذوه وأخرجوه عنى . وعدت أنا إلى الصلاة . فاغتفلهم وعاد ، وهجم علىّ ذلك بعينه ، وردّ وجهى إلى الشرق ، وقال : «كذا صلِ» . فعاد الداوية ، ودخلوا إليه وأخرجوه ، واعتذروا إلى ، وقالوا : «هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج فى هذه الأيام ، وما رأى من يصلى إلى غير الشرق» . فقلت : «حسبى من الصلاة!» . فخرجت ، فكنت أعجب من ذلك الشيطان ، وتغيير وجهه ، ورعدته ، وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة» .

إن هذا الفارس الصليبى ـ الذى التحق لتوه بقوات الاحتلال المسيحية ، والذى كان يؤدى خدمته العسكرية بحماس مفرط فى منطقة الحرم الشريف (= هى المنطقة الموجود فيها مسجد الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك) فى بيت المقدس ـ كان يعتقد أنه لا توجد صلاة ، إلا على الطريقة المسيحية ، وعجز عن تصور أو استيعاب إمكانية إقامة الصلاة بطريقة أخرى . لقد نشأ هذا الفارس وتربى دينياً فى مجتمع أوروبى مسيحى ، فى إطار نظام محدد من المعايير والقيم ، يعادل تصوراً متكاملاً عن العالم ، ويفسر كل شىء بطريقته الخاصة ، وله أيضاً تقييم ثابت لكل ناحية من نواحى الأرض . فمن المشرق ـ حيث تقع الجنة ، كما تقول التوراة والأناجيل ، وحيث صعد المسيح إلى السماء ، ومن حيث سيعود إلى الأرض كقاضى العالمين Weltenrichter ـ من هناك ينتظر المسيحيون الخلاص .

ولهذا السبب نجد أن صحون الكنائس متجهة نحو المشرق منذ فجر المسيحية . بيد أن جغرافيا الصلاة عند المسلمين تختلف عن

ذلك اختلافاً كليا . وبهذه الطريقة أيضاً أدى أسامة بن منقذ صلاته ، واقفاً ، ثم راكعاً ، ثم ساجداً ، وأخيراً جالساً . ولكن دائما فى اتجاه مكة الواقعة جنوبًا بالنسبة للقدس .

٢ـ فولخر الشارترى Fulcher von Chartres
يصف استقرار الصليبيين فى المشرق

كانت الصلاة الإسلامية مألوفة بالنسبة لفرسان المعبد ، الذين سبقوا ذلك الفارس فى الخدمة ، وكان بعضهم من أصدقاء أسامة ابن منقذ ، لقد تأقلم كثير منهم فى الغربة ، ووفقوا بين عاداتهم والبيئة الشرقية الجديدة . بل إن فولخر الشارترى Fulcher von Chartres (حوالى ١٠٥٩ ـ حوالى ١١٢٧ م) قد أشار أن كلّ شىء قد بدا وكأن إمبراطورية سلام آخر الزمان قد بدأت فى فلسطين ، حيث يقول : «انظر وتأمل كيف حول الله فى عصرنا هذا الغرب إلى شرق . فنحن ـ الذين كنا أوروبيين ـ صرنا اليوم شرقيين . وهذا الذى كان رومانيا أو إفرنجيا ، قد أصبح الآن هنا من أهل الجليل أو أبناء فلسطين . وذاك الذى كان يعيش فى رانز Reims (مدينة تقع فى شمال فرنسا) أو شارتر Chartres (مدينة فرنسية تقع جنوب غرب باريس) ، انتقل إلى مدينة صور أو أنطاكية . ونسينا بسرعة محل ميلادنا . لقد أصبح بعضنا يمتلك هنا بيتاً وخدماً ، وكأنه قد ورث ذلك عن أبيه . واتخذ الآخر لنفسه زوجة ، لم تكن دائماً من بنى قومه ، ولكن أحياناً سريانية ، أو أرمنية ، بل وأحياناً عربية مسلمة ، تركت الإسلام وتنصرت وتم

تعميدها . واستضاف الآخر حماه وزوجة ابنه ، أو أيضاً زوج ابنته أو زوج أمه ، ولا ينقصه الأحفاد ، وأبناء الأحفاد . وتفرغ البعض لزراعة العنب ، واهتم الآخر بزراعات أخرى . وكوسيلة للتفاهم يستخدمون بالتناوب لغات مختلفة ، أصبحوا يتقنونها الآن ، وصارت جميعها مألوفة للأمتين . وتوثق الثقة الروابط بين هؤلاء ، الذين كانوا فى الأصل غرباء» . ثم إن فولخر Fulcher الذى كان يعمل قسيساً فى قصر الملك بلدوين الأول Balduin I ـ أول ملك متوج لمملكة بيت المقدس الصليبية ـ قد استشهد فى ذلك الموضع بآية مسيحية يقول فيها النبى إشعياء : « . . . والأسد يأكل التبن مع البقر» (سفر إشعياء ـ ٦٥/٢٥) .

٣ـ أسامة بن منقذ و ملاحظاته عن طبائع الإفرنج

كذلك يتحدث أسامة بن منقذ بلهجة رزينة عن التقارب بين الحضارتين ، فيشير إلى فارس صليبى سابق استقر فى أنطاكية ، وكفّ عن تناول الأطعمة الأوروبية ، وكان باستطاعته أن يقول لصديقه المسلم مفتخراً : «كُل ـ طيب النفس! فأنا ما آكل من طعام الإفرنج ، ولى طباخات مصريات ، ما آكل ، إلا من طبيخهن . ولا يدخل دارى لحم الخنزير» .

ونقرأ أيضاً فى كتاب أسامة بن منقذ هذا عن فارس إفرنجى لم يُعجب بزيارة حمام شرقى فحسب ، بل إنه تعرف أيضا على حلاقة شعر العانة ، حيث أمر صاحب الحمام ـ سالما ـ أن يحلق

له عانته فوراً ، وكذلك عانة «المدام» زوجته ، مما أثار دهشة صاحب الحمام البالغة من مثل ذلك النقص الغريب فى الغيرة والنخوة .

٤ـ برنارد رئيس دير كليرڤو Bernard von Clairvaux وحقده على الإسلام

من المؤكد أن برنارد رئيس دير كليرڤو Bernard von Clairvaux (حوالى ١٠٩٠ ـ ١١٥٣م) ـ مسئول الدعاية الحربية فى الحملة الصليبية الثانية ـ لو كان قد سمع مثل هذه الأخبار ، لكان قد سارع واستنكر بشدة مثل هذه الخطوات الغشيمة والفضولية تجاه ثقافة الآخر ، ناهيك بالطبع عن الصورة السلمية الراقية للتآخى التى رسمها فولخر Fulcher . ففى مدحه للفروسية الجديدة ، شنع برنارد Bernard على الفرسان الدنيويين ، وأسلوبهم الماهر فى الحياة ، وامتدح شدة فرسان المعبد التابعين له ومهارتهم العالية فى معركتهم ضد الكفرة (= المسلمين) ، حيث يقول :

«لايمشطون شعورهم أبداً ، ونادراً ما يستحمون . بل إنهم يظهرون أفظاظاً ، لأنهم يهملون تصفيف شعورهم . يعتليهم الغبار ، ويميل لونهم إلى السمرة ، بتأثير من حرارة الشمس والسلاح . فإذا أنذرت الحرب ، تسلحوا داخلياً بالإيمان ، وبالنار والحديد خارجياً . . يسعون لإثارة الرعب ، أكثر من الإعجاب ، فى قلوب الأعداء . . إذا حان

وقت النزال ، يدعون الهدوء المعتاد جانباً ، وينقضون على أعدائهم ، وكأنهم يقولون : «ألا أبغض مبغضيك يا رب وأمقت مقاوميك» (المزامير ـ ١٣٩) . وهم يعتبرون أعداءهم غنماً» .

٥ـ الجهل البالغ

ولنرجع إلى فارسنا المتحمس القادم لتوه من أوروبا ، والذى كان على قدر كاف من الغباء والوقاحة ، جعله يهجم على مجد الدين مؤيد الدولة أبى المظفر أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر ابن منقذ الكنانى الكلبى ، محاولاً إجباره على الصلاة فى اتجاه المشرق ، بدلا من اتجاه مكة . ونحن نتساءل فى هذا السياق : ما الذى كان بوسع فارس المعبد الشاب هذا وأمثاله أن يعرفوه عن ديانة هولاء الكفرة المزعومين (=المسلمين) وشخصيتهم على الإطلاق ، قبل أن تحسم لقاءات الأوروبيين الشخصية بالمسلمين مسألة الاستلطاف والقبول ، أو الرفض والنفور؟

إن الإفرنج ـ كما كانت العرب تسمى مسيحيى أوروبا ـ لم يعرفوا فى الغالب شيئاً ذا بال عن خصمهم : «هذا الجنس الحيوانى الحقير» ، «هؤلاء الكلاب الخنازير» . وبرغم ذلك فقد كان باستطاعة زعماء الفكر المسيحى فى أوروبا أن يكونوا أكثر اطلاعا على الدين الإسلامى . ومما يثير الفكر والتأمل أن الأصوات الحادة والعنيفة الصادرة من جانب المتعصبين والمحرضين قد طغت بنجاح على الأصوات الأخرى المتسامحة .

٦ـ البابا جريجور السابع Gregor VII واحترامه للمسلمين

ونظراً للصورة المشوهة للإسلام ، المنتشرة فى كل صوب وحدب ، يبدو الخطاب البابوى الذى أرسله جريجور السابع Gregor VII إلى الملك الموريتانى الناصر (توفى سنة ١٠٨٨ ـ ١٠٨٩ م) كالمعجزة . فقد أظهر الحاكم المسلم تسامحا تجاه المسيحيين ، وأطلق سراح الأسرى النصارى . وقد ذكر البابا الحاكم الموريتانى فى خطاب شكر أرسله إليه بـ«الإله الواحد ، الذى يؤمن به كل منا ـ حتى وإن كنا نفعل ذلك بطريقة مختلفة ـ والذى نسبح بحمده يومياً ، ونتعبده كمبدع للدهر ، ومسير للكون» . ثم إن البابا جريجور قد استشهد فى خطابه للحاكم الموريتانى الذى كان الأوربيون يعتبرونه كافراً ، بالقول التالى من رسالة بولس الرسول إلى أهل أَفَسُس : «لأنه هو سلامنا الذى جعل الاثنين واحداً» (الإصحاح الثانى ـ ١٤) .

٧ـ روبرت الكيتونى يضع أول ترجمة لاتينية لمعاني القرآن

ولكن يبدو أن الصليبيين ـ جنوداً وضباطاً ـ رفضوا الاعتراف بحقيقة أنهم يواجهون إحدى ديانات التوحيد ـ القريبة جداً من ديانتهم ، فى شهادتها المقرة بالله الواحد الأحد ، والصلوات اليومية ، والصيام ، والزكاة . كانت معرفة الصليبيين بالقرآن محدودة جداً . صحيح أن أول ترجمة لاتينية لمعانى القرآن ظهرت سنة ١١٤٣م ، بقلم روبرت الكيتونى Robert von Ketton ، ولكن الأوروبيين كانوا يتطلعون إلى توظيف ترجمة معانى القرآن للطعن فى الإسلام .

كان هذا الإنجليزى - روبرت الكيتونى - المستقر فى مدينة طليطلة Toledo بإسبانيا يترجم تراث المسلمين فى علمى الهندسة والفلك من العربية إلى اللاتينية ، وأنجز هذا المشروع الطموح بتكليف من بطرس المبجل رئيس دير مدينة كلونى Petrus Venerabilis von Cluny (١٠٩٢ أو ١٠٩٤ - ١١٥٦م) . واشترك فى هذا المشروع مسلم اسمه محمد . ولاشك أن هذه الترجمة الدقيقة لمعانى القرآن قد بينت للغرب اللاتينى أيضاً أوجه التشابه بين القرآن والأناجيل . ولنتذكر فقط التبجيل العميق لسيدنا إبراهيم وسيدنا عيسى ومريم البتول فى كل من المسيحية والإسلام . ومع ذلك لم يفكر أحد فى ذلك الوقت فى التوصل إلى حد أدنى من الاتفاق والتفاهم بين المسلمين والمسيحيين على أساس كتابيهما السماويين . ولم تغتنم الفرصة المتاحة مع توافر أول قرآن لاتينى للتوصل إلى فهم أعمق وأدق للإسلام . وبدلاً من استخدامها كوسيلة للتفاهم ، استغلت ترجمة روبرت الكيتونى Robert von Ketton اللاتينية لمعانى القرآن كمجرد ينبوع محبب للطعن فى الإسلام على مدى قرون طويلة .

٨ـ مارتن لوثر Martin Luther يشتم رسول الإسلام (ﷺ)

وحتى بداية العصر الحديث لم يتغير من ذلك شيء . فعندما قام السويسرى البازلى يوحنا أوبورين Johann Oporin سنة ١٥٤٢م بطبع هذا القرآن اللاتينى ، سارعت بلدية مدينة بازل بحظر نشره . ولم تسحب حظرها ، إلا بعد التدخل المكثف

لمارتين لوثر Martin Luther ـ مؤسس الكنيسة البروتستانتية الإصلاحية . بيد أن حجة لوثر فى ذلك ، كما صاغها هو بنفسه ، كانت كما يلى :

«لقد استيقنت أنه لا يمكن عمل شىء أكثر إزعاجاً لمحمد Mahmet أو الأتراك ، ولا أشد ضرراً (أشد من جميع أنواع السلاح) ، من ترجمة قرآنهم ونشره بين المسيحيين ، عندئذ سيتضح لهم أى كتاب بغيض وفظيع وملعون هذا القرآن ـ ملىء بالأكاذيب والخرافات والفظائع» .

إن لوثر البروتستانتى ـ الذى أهان نبى الإسلام بلا أدنى حياء أو تأنيب ضمير ، واصما إياه بأنه «خادم العاهرات ، وصائد المومسات» ـ كان ينظر إلى قرآن مترجم إلى اللاتينية فى عصر الحروب التركية ، على أنه وسيلة مثالية لتسليح القلوب اليائسة للمسيحيين ، ورفع روحهم المعنوية ، حيث أعلن قائلاً : «بعد ظهور الأتراك على حقيقتهم ، أرى أن القساوسة عليهم أن يخطبوا الآن أمام الشعب عن فظائع محمد Mahmet ـ حتى يزداد المسيحيون عداوة له ، وأيضاً ليقوى إيمانهم بالمسيحية ، ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم فى الحرب ، ويضحوا بأموالهم وأنفسهم» . من شأن موعظة كهذه أن يكون أثرها النفسى على المسيحى أشد من طبول الحرب وأبواقها ، بل إنها ستمنحه قلب أسد حقيقياً فى ساحة القتال .

٩ ـ عقيدة التثليث

كان من السهل على المتعصبين المسيحيين أن يتهموا الإسلام بالزندقة والإلحاد. لم يحتاجوا، إلا أن يشيروا على سبيل المثال إلى الآيتين ١٧١ـ١٧٢ من سورة النساء، الرافضتين لعقيدة التثليث المسيحية، حيث يقول الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١) لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢)﴾ [النساء: ١٧١، ١٧٢]

أما الأشكال التى يمكن أن تتخذها هذه العقيدة المسيحية البالغة التعقيد، والخاصة بإله ثالوثى، فى عقول المسيحيين غير المثقفين دينيا، فيمكننا أيضاً أن نقرأها في مذكرات أسامة بن منقذ، حيث يحكى قائلاً: «ورأيت واحداً منهم (من الإفرنج)، جاء إلى الأمير معين الدين، رحمه الله، وهو فى الصخرة (جامع الصخرة فى أورشليم)، فقال: «تريد أن تبصر الله صغيراً؟». قال: «نعم». فمشي بين أيدينا، حتى أرانا صورة مريمٍ والمسيح عليه السلام صغيراً فى حجرها. فقال: «هذا الله صغيراً». تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً».

لقد اكتشف أورثوذكس أوروبا ورجال دينها المتمرسون على الجدل والشجار فى ذلك الوقت المجال الذى شعروا فيه بانطلاق مواهبهم وقواهم ، وهو الطعن فى الإسلام ، حيث اتفقوا جميعاً عل أن الإسلام هو كنيف (حرفيا : مجارى) الزندقة جميعاً . وكان لدى الأوروبين خبرة كافية منذ القرون الأولى لتاريخ الكنيسة بشئون الزنادقة ، وكانوا يتقنون التعامل معهم .

أما فيما يخص إنكار عقيدة التثليث المسيحية والتشويش عليها ، فكان رجال الدين المسيحى فى أوروبا قد اكتسبوا فى وقت مبكر خبرات طويلة فى ذلك من خلال الطريق الشائك الذى سلكوه بين التوحيد المحض ، كما ورد مبكراً فى التوراة والأناجيل من ناحية ، والشرك بالله ، كما يمارسه الكفرة والملاحدة من ناحية أخرى . ثم إن زعماء الكنيسة كانوا قد قرروا فى اجتماع نيكيا Nicäa سنة ٣٢٥م أن المسيح هو ابن الله ، وأن الابن والأب شىء واحد . وبعد ذلك القرار ، كان كل من يتجرأ على التشكيك فى هذا المذهب الملزم إلى الأبد ، يستبعد فوراً من ا لكنيسة الكاثوليكية ، ويصير معرضاً لغضب الله . وهذا بالطبع ينطبق أيضاً على رسول الإسلام محمد (ﷺ) وأتباعه .

واعتبر المسيحيون مَن سمّاه المسلمون نبيا ، وخاتما لسلسلة الأنبياء التى بدأت بأدم عليه السلام ، رجلاً عاش حياة داعرة ، وتجاوز خبثه كل حدود الدناءة والانحطاط . ولم يتورع خيال مسيحيى أوروبا المتعطشين للظفر والتوسع ، والذى نتجت عنه أساطير وهمية عدائية ، عن خلق الأكاذيب وترويجها . بل إن الأوروبيين ادعوا أن

رسول الإسلام كان فى الأصل كاردينالا كاثوليكيا ، تجاهلته الكنيسة فى انتخابات البابا ، فقال بتأسيس طائفة ملحدة فى الشرق انتقاماً من الكنيسة . واعتبرت أوروبا المسيحية فى القرون الوسطى محمداً (ﷺ) المرتد الأكبر عن المسيحية ، الذى يتحمل وزر انقسام نصف البشرية عن الديانة المسيحية .

١٠ ـ دانتى يضع رسول الإسلام (ﷺ) فى جهنم

كان منطقياً ـ بناء على ما سبق ـ أن يقوم دانتى بإقصاء رسول الإسلام (ﷺ) ، وعلى بن أبى طالب ، زوج ابنته فاطمة ، والخليفة الرابع ، إلى الحفرة التاسعة فى ثامن حلقة من حلقات جهنم ، حيث يقول فى «الكوميديا الإلهية» :

«برميل فقد سدادته وضلعه ـ
ليس مشقوقا مثل شخص هناك ـ
كان مشقوقا من ذقنه حتى قضيبه ـ
عندما أردت أن أتأمله بدقة ـ
نظر إلىّ ، ثم مزق صدره بيديه ، قائلاً : ـ
«انظر كيف أمزق جسمى ـ
تعالَ وتأمل كيف يتألم محمد (Mahomet) فى جهنم ـ
وترى أمامى على بن أبى طالب يخطو باكيا ـ
وقد شقت رأسه من الذقن حتى شعر الرأس ـ
وجميع من تشاهدهم هنا فى هذا الجزء من جهنم ـ
كانوا فى الحياة الدنيا أهل شجار وشقاق ـ
ولذلك فقد قطعت أجسامهم وشوهت أجسادهم هنا فى دار السعير» .

١١ ـ المسلمون يعبدون الأصنام ـ ملحمة رولاند

من غرائب الأوهام المسيحية الكاذبة عن الإسلام اتهام المسلمين بعبادة الأصنام . وتذكر «أغنية رولاند» Chanson de Roland الفرنسية القديمة (حوالى سنة ١١٠٠م) أسماء هذه الأصنام : أبوللين Apollin ، وتيرفاجانت Tervagant ، وماحوميت Mahumet (محمد) .

ثم إن هذا الثالوث الفلكى قد تم تطويره فى الترجمة الألمانية الوسيطة (عصر اللغة الأدبية الألمانية الوسيطة يمتد من القرن الحادى عشر حتى القرن الرابع عشر) للملحمة رولاند Rolandslied التى نشرها القسيس كونراد Pfaffe Konrad حوالى سنة ١١٧٠م ، عندما قام بتكليف من دوق عائلة القلفين هنرى الأسد Heinrich der Loewe (حوالى سنة ١١٢٩ ـ ١١٩٥م) وزوجته الأنجلو ـ فرنسية ماتهيلدا Mathilde بتحويل تكل الملحمة إلى رواية صليبية .

فى تلك الرواية ، يدعو الكفرة (المسلمون) آلهتهم ـ قبل معركة رونسفاليس Roncesvalles الفاصلة فى جبال البرانس ـ قائلين : «على هؤلاء الذين يريدون الخلاص أن يجتمعوا معا . ها هو تيرفاجانت Tarvagant الرحيم ، فلنعبده ، وكذلك ماخميت (محمد) Machmet العزيز ، وأبوللو Apollo المجيد . ولنعبد أيضاً المخلّصين الآخرين من الآلهة الخالدة» .

وعندما يسمع الإمبراطور كارل الأكبر Kaiser Karl der Grosse– هذا الدعاء ، تزداد ثقته فى نجاح مهمته ، حيث يقول :

«انظروا إلى هذا الشعب الملعون! إنه شعب ملحد ، لا علاقة له بالله . سوف يُمحى اسمهم من فوق الأرض الزاخرة بالحياة ، لأنهم يعبدون الأصنام . لايمكن أن يكون لهم أى خلاص ، لقد حُكِم عليهم . فلنبدأ إذن فى تنفيذ الحكم : بسم الله» . ثم تبدأ المذبحة .

ومازالت النسخة المنقحة لهذه القصة (ملحمة رولاند) التى نشرها شتريكر Stricker ، فى كتاب بعنوان «كارل الأعظم» Karl der Grosse (كتب بين سنة ١٢١٥ وسنة ١٢٣٣م) تحتوى على خرافة الصنم ماحميت (محمد) Mahmet .

١٢ـ أوتو الفرايسنجى Otto von Freising ينفى تهمة عبادة الأصنام عن المسلمين ولكنه يطعن فى محمد (ﷺ)

كان بوسع الأوروبيين أن يعرفوا فى القرن الثانى عشر أن السراسنة Sarrazin ـ وهو اسم أعداء المسيحيين عند شتريكر Stricker ـ لم يعبدوا الأصنام . كان هذا على كل حال ما ذكره فى تاريخه بوضوح أوتو الفرايسنجى Otto von Freising (١١١١/١٥ـ١١٥٨م) خال الإمبراطور فريدريخ بارباروسا Friedrich Barbarossa .

فهو ـ أى أوتو الفرايسنجى Otto von Freising ـ انتقد الرواية القائلة إن المسلمين قد قتلوا رئيس الأساقفة تيمو السالزبورجى Thiemo von Salzburg لأنه حطم أصنامهم بدلاً من أن يعبدها ، حيث يشير إلى أن الروايات الموثوق فيها تذهب فقط إلى أن

تيمو قد استشهد من أجل الديانة المسيحية ، ثم يذكر المؤرخ الدقيق فى عمله : «أما القول بأن تيمو قد حطم الأصنام ، فيصعب تصديقه ، لأنه من المعروف أن المسلمين Sarazenen لا يعبدون ، إلا إلها واحداً ، ولديهم شريعتهم السماوية ، ويمارسون الختان . كذلك فإنهم يعترفون بالمسيح وحوارييه وأتباعهم . وهم فقط بعيدون عن الخلاص لأنهم ينكرون أن المسيح هو مخلص الإنسانية ، وأنه الرب وابن الرب فى الوقت نفسه ، ويقدسون المضلل محمداً ، الذى تحدثنا عنه سابقاً ، باعتباره أعظم أنبياء الله تعالى» .

١٣ـ أرنولد الليوبيكى Arnold von Luebeck وتقديره النسبى للمسلمين

أمـا أرنولد الليـوبيكى Arnold von Luebeck (توفى سنة ١٢١١/١٢١٤م) ، فيمكن أن نلاحظ تقديره للكفرة (المسلمين) فيما بين سطور تاريخه .

وهو التقدير الذى نبحث عنه بلا جدوى فى الكتابات الشعبية لتلك الحقبة التاريخية . فهو يجعل المسلمين المحاصرين ـ الذين عرضوا على المسيحيين المغتصبين فى أحد الحصارات أثناء الحملة الصليبية الثالثة محادثات استسلام ـ يقولون : «نحن نتوسل إليكم أن ترأفوا بنا ، ونرجوكم أن تتسامحوا معنا . ولتتذكروا الديانة المسيحية المتسامحة ، التى تدعو ، كما تقولون ، إلى المحبة بين البشر . إننا ندعوكم أن تظهروا لنا أيضاً تلك المحبة ، كما يليق

بالأتقياء المتدينين . ذلك أننا ، وإن كنا غير مسيحيين ، إلا أننا لا نحيا بلا دين . فنحن نؤمن بأننا أبناء إبراهيم ، وأننا سمينا سراسنة Saracenen على اسم سارة ، زوجة إبراهيم . ولكن إذا كان علينا أن نؤمن بأن المسيح ـ باعتباره إلهاً حقيقياً وإنساناً ـ قد خلصكم من الخطايا بعد صلبه ، وأنكم تتفاخرون بحمل الصليب ، فإن بوسعكم أن تمنوا علينا أيضاً بروح المسيح . فحتى وإن كان ديننا مختلفاً عن دينكم . فمن المحقق أننا جميعا نؤمن بخالق واحد ، وأب واحد ، وأننا إخوة ـ ليس فى الدين ـ ولكن فى الإنسانية non professione, sed humanitate . فلتتذكروا هذا الأب ، ولترحموا إخوانكم» .

وبرغم أن أرنولد الليوبيكى أيضاً اعتبر محاربة المسلمين ـ كتيبة الشيطان ـ وشن حملات صليبية ضدهم من الضروريات ، إلا أنه لم ينسَ أن يضيف إلى تاريخه قصة جيرهارد الاشتراسبورجى Gerhard von Strassburg ـ الذى سافر سنة ١١٧٥م ، بتكليف من بارباروسا Barbarossa لمقابلة صلاح الدين (١١٣٨ ـ ١١٩٣م) سلطان مصر وسوريا فى ذلك الوقت .

متحرراً من أى تصورات مشوهة عن الإسلام ، قام جيرهارد بوصف موضوعى لإيمان المسلمين بالبارئ تعالى ، واحترامهم للمسيح ، باعتباره نبياً مقدساً ، قد رفعه الله ـ جسماً وروحاً ـ إلى السماء . وشدّد جيرهارد على أن المسلمين يعتبرون ماوميت (محمداً) Maumeth أعظم أنبياء الله ، وصاحب الشريعة . ثم يستطرد قائلاً : وفضلاً عن ذلك ، يصر المسلمون

على «أنهم ـ على العكس منا ـ يتبعون شريعة المسيح وحوارييه ، لأنهم مختونون» .

وقد زار جيرهارد الأماكن القديمة الخاصة بعبادة مريم العذراء ، وأوضح أن «هذه الأماكن يتدفق عليها المسلمون والمسيحيون معاً ، لتأدية الصلاة» . ثم إنه قد تأثر جداً بالخشوع العميق الذى يؤدى به المسلمون صلاتهم .

وتجدر هذه المقاطع من تاريخ أرنولد بالذكر والملاحظة ، خاصة أن هذا المؤلف الألمانى الشمالى قد عاش فى بيئة عائلة القلفين نفسها التى تمكنت فيها ملحمة رولاند Rolandslied قبل ذلك من تثبيت الصورة الشريرة للكفرة (المسلمين) فى عقول الغربيين .

١٤ـ ولفرام الايشينباخى Wolfram von Eschenbach وتعاطفه مع المسلمين

إن الكرامة التى اعترف بها كلّ من أرنولد الليوبيكى وجيرهارد الاشتراسبورجى (فى الأدب اللاتينى) للكفرة (المسلمين) تظهر فى الكتابات الألمانية فى العصور الوسطى لأول مرة عند ولفرام الايشينباخى Wolfram von Eschenbach ـ ففى روايته المسماة Gralsroman ـ التي ألفها فى العقد الأول من القرن الثالث عشر ـ يجعل الفارس جاهموريت الأنيونى Gahmuret von Anjou ـ أبا پارتسيفال Parzival ـ يرتحل إلى المشرق ، ليس لإظهاره هناك كفارس صليبى ، ولكن كحليف لأمير شرقى

ضد أمير عربى آخر، أو كمقاتل ضد حكام مسيحيين، حيث يقوم بخدمة ملكة سوداء (مسلمة)، اعتبر ولفرام أخلاقها فى غاية النبل والطهارة، وكأنها قد تلقت لتوها بركة التعميد. وبعد أن يرتبط جاهموريت الآنيونى بها، تنجب له ولداً اسمه فايريفيتس Feirefiz - نصفه أسود والنصف الآخر أبيض. كان فايريفيتس غير معمد. وكان له أخ غير شقيق اسمه پارتسيفال Parzival. وبعكس فايريفيتس، كان پارتسيفال أبيض ومعمداً. وتظهر موضوعية الشاعر ولفرام الايشينباخى وموقفه الإيجابى من الإسلام فى نهاية الرواية بوضوح. ففى وصفه لمنازلة پارتسيفال لأخيه فايريفيتس غير المعمد بلونيه الأبيض والأسود، حيث كان كل منهما يرتدى قناعاً حربياً - لا يميز ولفرام الايشينباخى بين البطل المسيحى المعمد والبطل الكافر (المسلم) الغير المعمد، بل يقر لهما جميعاً بوداعة الحملان وشجاعة الأُسدان.

أما المستوى الأخلاقى الرفيع للكفرة (المسلمين)، فقد أظهره ولفرام بأسلوب رائع فى روايته الصليبية المسماة ڤيلليهام Willehalm (١٢١٠ - ١٢٢٠م). فبينما ظل الكفرة الملحدون المنغمسون فى شهواتهم، جيش الشيطان وسربه - أى: المسلمون - يلقبون فى النسخة الألمانية لملحمة رولاند عند شتريكر بالكلاب والكائنات الحقيرة، ظهر غير المعمدين (المسلمون) فى رواية ڤيلليهالم Willehalm كأشراف، يعيشون فى القصور، ويتمتعون بأخلاق كريمة، ولا فرق بينهم وبين المعمدين (المسيحيين).

ويصيغ ولفرام ، بتعبيرات مؤثرة هذا الإجلال للأعداء الكفرة (المسلمين) ، وذلك فيما يسمى بخطبة التسامح التى ألقتها امرأة متنصرة تدعى جيبورك Gybrc ، حيث تقول : «وعندما ينهزم الكفرة (المسلمون) ، فلتحسنوا معاملتهم ، تسامحوا معهم حتى تفوزوا بالخلاص . استمعوا إلى نصيحة امرأه شابة (تقصد نفسها) . ارفقوا بهم ، فهم أيضاً من مخلوقات الله» .

وتستطرد جيبورك Gyburc المتنصرة قائلة : إن أول إنسان خلقه البارئ تعالى كان أيضاً كافراً (لأنه لم يكن معمداً) ، مثل إيليا وأخنوخ ونوح وأيوب ، وأيضاً مثل الملوك القديسين الثلاثة : كاسبر Kaspar وملخيور Melchior وبالتهاسار Balthasar ـ الذين استلم المسيح منهم الهدايا الأولى ـ فمنذ عصر حواء تحمل جميع الأمهات ـ بما فيهن المعمدات ـ فى البداية طفلاً كافراً (لأنه لا يمكن تعميد الطفل قبل ولادته ، والتعميد هنا يعنى تطهير المرء من كفره ، وتحويله إلى مسيحى مؤمن صالح) .

إن تعليق ولفرام Wolfram على المذابح التى ارتكبها المسيحيون فى حروبهم الدينية يكشف بجلاء عن موقفه كشاعر ـ استند فى مؤلفاته أيضاً على مراجع عربية ـ من هذه القضية ، حيث يقول :

«ألا يمثل قتل هؤلاء الناس مثل البهائم ، وهم الذين لم يسمعوا عن التعميد من قبل ، ارتكابا للمعاصى؟ إننى أعتبر ذلك من الكبائر! ذلك أن البشر جميعاً من مخلوقات الله تعالى ، والمتحدثون بالاثنتين والسبعين لغة جميعهم من عباد الله» .

١٥ـ توماس الأكوينى Thomas von Aquin وافتراءاته على الإسلام

لقد تورط مفكرو أوروبا ، باستثناء حالات قليلة ، ولكنها رائعة ، فى علاقة طعن وهجوم ضد الإسلام . فصحيح أن توماس الأكوينى قد تلقى دفعات فكرية هامة من خلال دراسته العقلانية للفيلسوف الأرسطوطالى العربى الأندلسى ابن رشد (١١٢٦ ـ ١١٩٨م) ، ولكنه ظل فى تقييمه للإسلام ، ورسول الإسلام محمد (ﷺ) ، على المستوى الوضيع المكرر والمعروف لعصره ، والذى حدّده بطرس المبجل Petrus Venerabilis (١١٢٦ ـ ١١٩٨م) فى مؤلفاته التى طعن فيها الإسلام .

ففى كتابه «الشامل فى الرد على الكفرة» Summa contra gentiles ـ الذى مهد الطريق أمام العمل التبشيرى فى إسبانيا للدفاع عن المسيحية والطعن فى الإسلام ـ نقل توماس الأكوينى الاتهامات القديمة ، وادعى أن : «ماحوميت Mahumet (محمدا) قد أغوى الشعوب من خلال وعوده لها بالمتع الشهوانية» . وبالتالى لم يجد الشهوانيون من البشر أى صعوبة فى اتباع تعاليمه . ويستطرد توماس الأكوينى قائلاً إن محمداً لم يرد ذكره فى التوراة والأناجيل ، ولا يمكنه أن يدعى أن الرسل الأسبقين قد تنبؤوا بظهوره وبعثته من بعدهم . واتهم توماس الأكوينى رسول الإسلام بتحريف جميع الأدلة الواردة فى التوراة والأناجيل من خلال الأساطير والخرافات التى كان يتلوها على أصحابه . ولم يؤمن

برسالة محمد (ﷺ) ، إلا المتوحشون من البشر - homines bestiales - الذين كانوا يعيشون فى البادية .

١٦ - نيكولاوس الكوسى Nikolaus von Kues وفكرة السلام بين الأديان

وعلى العكس من ذلك كان عالم اللاهوت نيكولاوس الكوسى Nikolaus von Kues (١٤٠٠/١٤٠١ - ١٤٦٤م) - الذى كان فيلسوفا وسياسياً تابعاً للكنيسة فى الوقت ذاته . فبجانب كتابه «نظرات فى القرآن» Cribratio Alchorani - وهو دراسة جادة عن الإسلام ، أهداها إلى البابا پيوس الثانى Pius II فى عصر النهضة - ألف نيكولاوس ، بمناسبة فتح العثمانيين القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م ، كتاب «السلام بين الأديان» De pace fidi . نقطة انطلاق هذا البحث - الذى يعتبر بحق دراسة قيمة فى حوار الأديان - هى القناعة الفلسفية بأن جميع الأديان السماوية تتضمن فكرة دينية أساسية واحدة . فهذه الأديان - برغم تنوع طقوسها ، واختلاف عاداتها المتزايدة عبر التاريخ - يجمعها دين واحد أو فكرة واحدة ، وهى السعى لكشف سر الوجود ، ومعرفة الذات الإلهية . وتوحيد الاختلافات بين هذه الأديان ليس ممكناً ولا مطلوباً . وهذا الدين الواحد الشامل - هذا الشىء الإلهى المطلق - لا يظهر فى الأديان السماوية ، إلا بصورة ناقصة جداً ، حتى وإن اعتبر نيكولاوس الكوسى المسيحية هى الأقرب إلى ذلك الدين . بعبارة أخرى يرى

نيكولاوس أن الله تعالى أكبر وأعظم من أن يستطيع دين واحد أن يحتويه ويشمله ، وأن كل دين من الأديان السماوية لا يرى ، إلا جزءاً من الحقيقة ، دون أن يستطيع أحد الأديان أن يستحوذ على الحقيقة بأكملها - أى أن الحقيقة مقسمة بين هذه الديانات - وكل دين يرى ما قد لا يراه الدين الآخر . وهذا يعنى أن العنصر الإلهى موجود بالفعل فى جميع الديانات السماوية . فلا يوجد دين سماوى على حق ودين سماوى آخر على ضلالة ، بل إن جميع الديانات السماوية الثلاث تجتمع على الحق ، وتشترك فى الصدق .

انطلاقاً من هذا الموقف ، يمكن الحكم على الإسلام والقرآن ومحمد (ﷺ) ، بطريقة أكثر تفهماً وتعاطفاً . ذلك لأن ترجمات معانى القرآن وتفاسيره المتوافرة حتى الآن باللغات الأوروبية ، هى ترجمات وتفاسير قائمة على التشويه والطعن ، وبالتالى لم تتمكن من إظهار مشاركة الإسلام والقرآن فى هذه الحقيقة الواحدة . ولن تظهر هذه المشاركة واضحة جلية ، إلا عندما يجتهد الأوروبيون فى عمل ترجمة دقيقة لمعانى القرآن ، يراعون فيها الحس الدينى للمسلمين ، ويقتدون فى ذلك بروح الأناجيل .

١٧ - رامون لول Ramon Lull واحترامه لجميع الأديان السماوية

إن روحانية الكاردينال نيكولاوس الكوسى ، صاحب الشخصية المتفتحة على العالم ، فى تعامله مع الإسلام ، تعود فى المقام الأول إلى تأثره بالفيلسوف والمتصوف الإسبانى رامون لول Ramon Lull

(١٢٣٢/١٢٣٣ ـ ١٣١٥/١٣١٦م) . ففى كتابه المسمى «كتاب الكافر والحكماء الثلاثة» Libre del gentil e dels tres savis يدور فى مرج جميل حوار دينى علاجى بين أربعة أشخاص : أولهم ينكر وجود الله ، والثانى مسيحى ، والثالث يهودى ، والرابع مسلم Sarazener . وبناء على الرغبة الصريحة للكافر اليائس ـ الذى يقوم أيضاً بدور الحكم ـ يحاول الحكماء الثلاثة أن يوضحوا له حقيقة وجود الله ، وبعث الموتى يوم القيامة ، وذلك حتى يتخلص من الحزن وعذاب ا لنفس . وبذلك تكون المناقشة التى تجرى فى جو من الود والاحترام المتبادلين ، غير نابعة من دوافع عقلانية ، ولكنها تنطلق من الشعور بضيق نفسى وفراغ روحانى . و فى الحوار الذى يخلو من تبادل الضربات البرهانية ، وهو ما كان معتاداً فى المناقشات العلمية حينئذ ، يقوم ممثلو أديان التوحيد الثلاثة بشرح معتقداتهم بترتيب زمنى دقيق متفق عليه . و ذلك بعد أن قام كل منهم بالدعاء إلى البارئ تعالى ، رب العالمين . وينتهى الحوار ـ الذى لم يحاول فيه أى طرف من أطرافه الثلاثة أن يظهر تفوقه من خلال الاستشهاد بآيات من كتابه السماوى ـ بلا منهزم أو منتصر . ويظل كل حكيم وفياً لدينه ، مخلصاً لعقيدته . وبرغم أن الكافر قد آمن فى النهاية بالله تعالى ، وشعر بالأمل والسعادة ، إلا أن رامون لول Ramon Lull ترك مسألة اعتناقه أحد الأديان الثلاثة غير محسومة . إن قيمة هذا اللقاء الفريد تكمن فى ذاته ، بحيث تتلاشى الحاجة إلى نتائج تبشيرية لتبريره ـ أى أن هدف الحوار هنا هو الإقناع ، وليس التبشير .

١٨ ـ كلمة أخيرة

إذا صح القول بأن التاريخ هو معلم أو مدرسة الحياة ، فلابد من استنباط نتائج ودروس للحاضر من نظرات الغرب ـ السلبية والإيجابية ـ للإسلام فى القرون الوسطى . تكشف التشويهات والمطاعن والشتائم عند انتشارها عن قوة العداء الكامنة فيها . وتوطد التشويهات والمطاعن بعضها بعضاً ، وتتهرب من أى مواجهة فكرية أو تفنيد عقلانى (فإذا قيل مثلاً عن شخص معين إنه خنزير ، فسيتبع ذلك أنه قذر وكسول ووضيع ودنىء . فإذا استفسر أحد عن سبب القذارة ، تكون الإجابة أنه قذر لأنه خنزير . وإن سأل آخر عن سبب كونه خنزيراً ، يكون الرد أن سبب ذلك هو أنه وضيع ودنىء ، وهلم جراً) . وتخدم هذه التشويهات والمطاعن موقفاً يتسم بالجهل ، ويقوم على تقسيم الشعوب والأشقاء بطريقة تعسفية متجمدة إلى أعداء وأصدقاء .

ولن يمكن التخلص من هذه التشويهات والمواقف السلبية من خلال تحليل متحيز ومعاند لمواقف متناقضة ، ولكن فقط عن طريق اللقاء الشخصى ، والحياة اليومية المشتركة ، وذلك عندما تتساقط أقنعة التشويه من تلقاء نفسها ، ويتجلى الوجه الإنسانى الحقيقي . إنها حقا حلقة شيطانية مفرغة ، يصعب الخروج منها : فمن ناحية تجعل الصورة المشوهة للآخر الالتقاء به مستحيلاً ، ومن ناحية أخرى لا تؤدى الاتصالات المثقلة بالأحكام الخاطئة غير الموضوعية ، إلا إلى تأكيد وتقوية التشويهات والمواقف السلبية .

وبرغم ذلك ، فليس الخروج من هذه الحلقة الشيطانية المفرغة مستحيلاً ، كما أظهرت ذلك بعض الأمثلة المذكورة أعلاه .

إن الغرب ـ الذى كانت لمؤسساته الكنسية على مر قرون طويلة إسهامات فاضحة ومخزية فى تشويه صورة العرب والأتراك ، ونظراً للمهام الضخمة لعصرنا ـ لا ينبغى تحت أى ظرف من الظروف أن يبتعد مرة أخرى عن روح الوثيقة التى أصدرها زعماء الكنيسة فى اجتماعهم منذ حوالى ثلاثين عاماً . وقد أشارت حواشى هذه الوثيقة بوضوح إلى الخطاب المشار إليه عاليه الذى كتبه جريجور السابع Gregor VII إلى الملك الموريتانى الناصر ، قبل حوالى تسعمائة عام . ومما تشير إليه هذه الوثيقة عن الإسلام ، فى «بيان عن علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية» ، ما يلى : « . . . ولكن نظراً لما حدث على مر القرون من خصومات ونزاعات بين المسلمين والمسيحيين ، ينصح المؤتمر الكنائسى المقدس الجميع ، بعدم الالتفات إلى الماضى ، والسعى بإخلاص إلى التوصل إلى تفاهم متبادل ، والتعاون على حماية وتشجيع العدالة الاجتماعية ، والقيم الأخلاقية ، وأخيراً وليس آخراً دعم السلام والحرية للبشر جميعاً» .

- ٢ -

الإسلام والغرب ـ الجوار المفقود

بقلم المستشرق الألمانى: جيرنوت روتر

١ ـ الإسلام ـ العدو الوهمى الجديد للغرب

كان الأمر بسيطاً جداً فى العقود الماضية ـ منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وحتى انهيار الدول التى تبنت نظرية الخلاص الشيوعية ـ : فنحن كنا الأخيار، أو الطيبين ـ أما الأشرار ـ الأعداء ـ فكانوا دائماً الآخرين. هكذا كان الغرب الرأسمالى ينظر إلى الشرق الشيوعى، مثلما كان الشرق الشيوعى ينظر إلى الغرب الرأسمالى. وامتد التقسيم الثنائى القطب شرقاً وغرباً، أو إيديولوجياً يساراً ويميناً، إلى داخل المجتمعات الفردية. لقد كانت صورة العدو الوهمى das Feindbild[1] بسيطة بمثل كونها سهلة الفهم. ومع انهيار المعسكر الشرقى ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠م أصيبت صورة العدو الوهمى هذه بالتصدع والشروخ. وأخيراً عفى عليها الزمان،

---

(١) انظر: Karin Hoerner, Der Begriff Feindbild. Ursachen und Abwehr. In: Verena Klemm und Karin Hoerner (Hrsg.), Das Schwert des "Experten". Peter Scholl-Latours verzerrts Araber- und Islambild. Palmyra Verlag, Heidelberg 1993, S. 34-43.

ـ وراجع أيضاً: Karl-Heinz Hillmann, Wcerterbuch der Soziologie, Kroener Verlag, Stuttgart 1994 (4. Auflage), S. 218 F.

وأصبحت غير صالحة للاستعمال من قبل القادة العسكريين ومنتجى السلاح، أو المسئولين السياسيين، لمواصلة تبرير ارتفاع النفقات العسكرية فى الغرب. وعندما انقضّ صدام حسين على الكويت، بعد ذلك بشهور قليلة، مهدّداً بذلك، كما يقال، إمدادات الغرب بالطاقة، جاء هذا الاعتداء فى الوقت المناسب تماماً. كان التوقيت دقيقاً إلى درجة أن البعض لم يشأ أن يصدق فى الواقع أن هذا قد حدث من قبيل الصدفة، ليقدّم لـ«العالم المتمدين» عدواً وهمياً جديداً: الإسلام. وحتى الخمينى نفسه، ذلك المتشدد Fundamentalist الحقيقى، لم يتمكن قبل ذلك بعشر سنوات من خلق مثل هذه الأجواء المعادية للإسلام والشرق. وعن قصد تجوهلت حقيقة أن المجرم السياسى صدام حسين يمثل الإسلام بالقدر نفسه الذى يمثل به نوريجا المسيحية مثلاً. وبعد ذلك شيّدت البنية العلوية[2] الإيديولوجية لصورة العدو الوهمى الجديد.

٢ ـ صامويل هانتينجتون وصراع الحضارات

فى سنة ١٩٩٣ قدّم صامويل هانتينجتون Samuel Huntington ـ وهو على كل حال مدير المعهد الشهير للدراسات

(٢) البنية العلوية، بالألمانية Ueberbau، وبالإنجليزى Supra-structure:
«... يُطلق ماركس أحيانا على الأساس الاقتصادى البناء الأسفل، أو القاعدة السفلى: infra-structure، وعلى الظواهر الخلقية والعقلية البناء الأعلى: Supra-structure – ويرى أن الثانية تقوم على الأولى».
– انظر: أحمد زكى بدوى، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٦، (الطبعة الثانية)، ص ٤١٢.

الاستراتيجية بجامعة هارفارد - الدعوى These بأن الصدامات العسكرية المستقبلية ستحدث على طول الشريط الواقع بين المناطق الحضارية ، وخاصة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية(٣) . بواسطة مثل هذه الدعاوى يتم الترويج للصدامات المستقبلية على أنها صدامات لايمكن تحاشيها ، وتكهنات تتحقّق من تلقاء نفسها : Self fulfilling prophecies وكان الاستقبال الإيجابى لهذه الدعوى فى وسائل الإعلام الغربية مخيفاً حقاً . وهو فى رأيى لا يثبت ، إلا أن حرب الحضارات المتنبأ بها قد بدأت بالفعل فى عقول الغربيين قبل ذلك بوقت طويل .

٣ـ نقاط الاتفاق ونقاط الخلاف بين الأديان الثلاثة

إن التنافر ، أو عدم التوافق Inkompatibilitaet ، المزعوم بين الفكر الإسلامى - من وجهة نظر الغربيين الفكر العربى فى المقام الأول - والفكر الغربى ، هو بالنسبة لكتاب كثيرين حقيقة لا ريب فيها . وكون نقاط الاتفاق بين الإسلام والمسيحية واليهودية تفوق نقاط الخلاف بينها ، هى حقيقة يندر حتى إظهارها أو إبرازها . فمنشأ الديانات الثلاث هو عالم شبه الجزيرة العربية السامى ، وسيدنا إبراهيم هو الأب الأول المشترك لها ، والتوحيد الأبوى هو رسالتها المشتركة ، والوحى الإلهى هو وسيلتها المشتركة ، وهى جميعاً تقرّ بأن الجنة والنار هما جزاء العمل فى الحياة الدنيا .

---

(٣) راجع الترجمة العربية لمقال هانتيجتون بقلم منى ياسين فى كتابها : الغرب والإسلام ، دار جهاد للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٤ ، ص ١٧١ وما بعدها .

وكما أن محمداً (ﷺ) كان مقتنعاً بأن ما تلقاه من وحى يطابق الوحى الذى كان موجهاً أصلاً إلى اليهود والمسيحيين ، فكذلك اعتقد مسيحيو الشرق لفترة طويلة أن الإسلام ليس إلا صورة جديدة من المسيحية . نقطة أخرى تجمع بين هذه الأديان ، ولكنها فى الوقت نفسه أكبر عامل يفرق بينها ، هى ادعاء الحوز على الحقيقة المطلقة . وليس من المنتظر فى الوقت الحالى قيام حوار بين أديان التوحيد الثلاثة ، لأن ذلك يعنى أن الديانات الثلاث عليها أن تعترف جميعاً ـ الثلاث وليس فقط الديانتان الأخريان دائماً ـ أنها نسخ متشابهة جداً من الأصل المفقود ، كما وصف ذلك بجلاء ليسنج Lessing[4] فى قصته Ringparabel . سينتج عن ذلك مذهب مجرد مستنير للألوهية الطبيعية Deismus[5] ، وهو على الأرجح تصور مذعر لمعظم علماء الدين فى الديانات الثلاث .

---

(٤) ليسنج جوتهولت (١٧٢٩ - ١٧٨١م) «مسرحى وناقد ألمانى . هاجم فى نقده مقلدى المسرح الفرنسى ، واتخذ شكسبير مثلاً أعلى ودعا إلى جمالية مسرحية جديدة . من نقده (فن المسرح فى همبورج) ، (لاوكون) . ومن مسرحياته (ناتان الحكيم) ، (وهى) مسرحية برجوازية فلسفية» .

- انظر : المنجد فى الأعلام ، الطبعة السادسة عشرة ، دار المشرق ، بيروت ١٩٨٨ ، ص ٥١٤ .

- وراجع أيضاً : عبدالرحمن بدوى ، موسوعة الفلسفة ، الجزء الثانى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ٣٥٩ - ٣٦١ .

(٥) Deismus بالألمانية ، وdeism بالإنجليزية : «مذهب الألوهية الطبيعية : المذهب القائل إن الله خالق الكون والمشرع له ، ولكنه ليس أكثر من ذلك . فهو ليس مصدر الخير ، وليست له صلة مباشرة بالعالم ، ولذا فلا يمكن أن يكون هناك اتصال بين الإنسان والله ، كما ينكر هذا المذهب الوحى والأنظمة الدينية» .

- انظر : أحمد زكى بدوى ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ، مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٨٦ ، (الطبعة الثانية) ، ص ١٠ .

٤ـ الجهل كأحد أسباب سوء الفهم

بيد أن الأمر فى التصورات العدائية Feindbilder المتبادلة لا يتعلق بمسائل الخلاف العقائدية على الإطلاق ، أو يحدث هذا عرضاً فقط على أحسن تقدير . فالتناقض لا يُبنى عند كلا الطرفين بين الإسلام والمسيحية ، ولكن بين الإسلام والغرب . وهذا يعنى أن نقطة الانطلاق تتمثل فى كتلتين ثقافيتين متجانستين ، تسمى الأولى باسم دينها ، والثانية باسم موقعها الجغرافى . وهكذا يتم النقاش على مستويين مختلفين . وطبقاً لذلك كثيراً ما لا يتفاهم الطرفان . ولكن سوء الفهم له أيضاً سبب آخر هو أن كل فريق يعتبر تصوراته الخاصة بالقيم بديهية وصحيحة ، وأن كل ما يخالف هذه التصورات ـ حقيقة أو خيالاً ـ ينظر إليه على أنه سلبى وخاطئ . ولنضرب مثالين لذلك من القرون الوسطى . المثال الأول : إن مؤلف ملحمة رولاند Rolandslied[٦] يجعل العرب يعبدون محمداً (ﷺ) وأبوللو Apollo وتيرفاجانت Tervagant . فالثالوث المسيحى كان حقيقة بديهية فى عقول الغربيين إلى الحد الذى جعلهم يتهمون

(٦) ملحمة رولاند Chanson de Roland يعود تاريخ كتابتها إلى الفترة ما بين سنة ١١٠٠م وسنة ١١٢٥م . وتتكون من أكثر من أربعة آلاف بيت من الشعر البطولى باللغة الفرنسية القديمة . تصوّر هذه الملحمة فناء مؤخرة الجيش الجرمانى الغربى على يد المسلمين فى ممر رونسفال ، ثم انتقام شارلمان من المسلمين ، وتدور أحداث هذه الملحمة حول المعركة البطولية التى سقط فيها الشريف الألمانى رولاند ، أحد فرسان شارلمان . وفى سنة ١١٣٥ قام القسيس كونراد بنقل هذه الملحمة إلى اللغة الألمانية الوسيطة ، حيث أصبحت تعرف بـ Rolandslied .

– قارن : Der grosse Knaur, Buchclub Ex Libris, Zuerich 1967, Bd. 1. S.464

المسلمين به أيضاً . كذلك فإن عبادة محمد (ﷺ) ، كمؤسس دين ، على التوازى مع عبادة المسيح ، هى نقل خاطئ تماماً للتصورات الذاتية . المثال الثانى يتمثل فى تهمة أخرى محببة كانت تقول إن المسلمين يعبدون ـ بجانب الله ـ ڤينوس Venus : إلاهة الحب عند الرومان ، ومما استند إليه أصحاب هذا الزعم قولهم بأن المسلمين قد رفعوا من شأن يوم الجمعة ، وجعلوه أفضل أيام الأسبوع ، وأن يوم الجمعة (dies veneris - vendredi,venerdi) [٧] قد كان فى القرون الوسطى اللاتينية هو يوم ڤينوس Venus : إلاهة الحب عند الرومان ، بينما كان يوم الأحد (domenica dies, dimanche)[٨] هو يوم الإله . كذلك يصادف المرء فى المعالجات الحديثة لقضايا الشرق الأوسط بصورة مستمرة تعبيرات غربية يتم فرضها على هذه القضايا العربية . فمثلاً فى الحرب الأهلية اللبنانية كان المسلمون بالنسبة لوسائل الإعلام الغربية هم «اليساريين» ، وكان المسيحيون هم «اليمينيين» ، بالرغم من أن هذه المسميات لا أساس لها من الواقع .

---

(٧) يوم الجمعة باللغة اللاتينية Veneris dies – وبالفرنسية vendredı – وبالإيطالية venerdi – يعنى يوم إلاهة الحب فينوس .

– راجع : / Duden, Das Herkunftswörterbuch, Dudenverlag, Mannheim Wien / Zürich 1989, S. 204.

(٨) يوم الأحد باللغة اللاتينية dominica dıes – وبالفرنسية dimanche – وبالإيطالية domenica – يعنى يوم الإله .

– راجع : / Duden, Das Herkunftswörterbuch, Dudenverlag, Mannheim Wien / Zürich 1989, S 682.

٥ـ خطأ مساواة الإسلام بالتطرف والعنف

وأخيراً فإن قصور الغرب عن الفهم ناتج عن مساواة وخيمة العواقب للإسلام بحركات التطرف التى اتخذت من العنف أسلوباً لها . إن تنوع التيارات المختلفة داخل الإسلام لايلاقى لدى الغرب أى اهتمام يُذكر : حيث أن هناك الإسلام الشعبى والتصوف ، وكذلك التيار التقليدى والتيار الإصلاحى ، ناهيك بالطبع عن طبقات المثقفين الذين يؤمنون بالإسلام كديانة ، ولكنهم فى الواقع مسلمو الثقافة فحسب ، مثلما يشعر بعض الأوروبيين المنكرين لوجود الله بالانتماء كلية إلى الثقافة الغربية ذات النزعة المسيحية . بل إن الغربيين يركزون أبصارهم على مَن يُطلق عليهم «المتطرفين» Fundamentalisten ـ الذين يسمون أنفسهم بالمناسبة «إسلاميين» ـ ويتجاهلون فى ذلك حقيقة أن التنوع الإسلامى نفسه يُظهر تشكيلة واسعة من التيارات تمتد من الحركات المسالمة حتى جماعات الإرهاب المسلحة . ويبدو أن التفريق يتم بصمت بين المتشددين الطيبين أو الأخيار ، مثل السعوديين ، والمتشددين الأشرار ، مثل الإيرانيين ، لأن ذلك يخدم المصالح السياسية والاقتصادية للغرب .

٦ـ الإسلام فى الكتب المدرسية الألمانية

إذا تصفح المرء كتب التاريخ المدرسية الألمانية[٩] ، سيجد أن

(٩) انظر عن هذا الموضوع العمل الممتاز الذى قام به البروفيسور فالاتورى :
Abdoldjavad Falaturi, Islam in Religious Education Textbooks in Europe, islamische wissenschaftliche Akademie, Koeln 1990.

اتصال الغرب المسيحى بالعالم الإسلامى قد تراجع وانحصر فى ثلاثة أحداث عسكرية . أولها هى معركة بلاط الشهداء المسماة موقعة تور وبواتييه Tours und Poitiers(١٠) سنة ٧٣٢م ـ التى أنقذ فيها كارل (شارل) مارتل Karl Martell(١١) الغرب ـ كما يقال ـ من الاجتياح الإسلامى ، وهو ما يعتبر هراءً تاريخياً ، لأن الأمر من وجهة النظر الإسلامية كان يتعلق بمجرد حملة من الحملات التقليدية ، عديمة الأهمية تماماًمن الناحية الاستراتيجية العسكرية فى أرض العدو . وبالرغم من ذلك فمازال تمجيد هذا الحدث التاريخى يمثل جزءاً من المعارف الأساسية فى الغرب . ويتبع ذلك الحملات الصليبية والتى وإن لم يعد الغرب اليومَ يمجّدها كعمل بطولى عظيم ، إلا أن الحسرة على فقدان القدس تظهر تلميحاً فى كل ما يقرؤه المرء أو يسمعه عن هذا الموضوع . إن كون صلاح الدين وخلفائه ـ بطردهم الصليبيين ـ قد صانوا الشرق الأوسط من السيطرة الغربية ، هو حقيقة لا يقدّرها الغرب . وفى

---

(١٠) عن معركة بلاط الشهداء ، راجع : عبدالعظيم رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ١٢٦ وما بعدها .
– وانظر أيضاً : عبدالفتاح مقلد الغنيمى ، الإسلام والثقافة العربية فى أوروبا ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ١٢٠ وما بعدها .
– وكذلك : عمر فرّوخ ، العرب والإسلام فى الحوض الغربى من البحر المتوسط ، دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٨١ (الطبعة التانية) ، ص ١٢٨ وما بعدها .
(١١) راجع : زيجريد هونكه ، الله ليس كذلك ، ترجمة غريب محمد غريب ، مؤسسة باڤاريا ، مجلة النور ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٩٥ ، ص ٤٧ وما بعدها .

مقابل ذلك يتم تقريظ الأمير أويجن[12] Prinz Eugen «الفارس النبيل» كمنقذ للغرب والمسيحية ، لأنه أدّب الأتراك ، ووضعهم عند حدودهم . كل هذا يجرى فى الغرب تحت الشعار الذى يبدو أنه لايمكن استئصاله ، القائل بأن مقصد الإسلام الوحيد هو التوسع «بالنار والحديد» . إن سعى بعض الدول ـ التى اتفق أن حكامها فى ذلك الوقت كانوا مسلمين ـ إلى التوسع ـ تماماً مثلما فعلت ذلك دول أخرى كان يحكمها مسيحيون ، مع ملاحظة أن أوضاع المسيحيين فى حالة الفتح الإسلامى كانت فى العادة أفضل بكثير من العكس ـ هو فى الواقع حقيقة معروفة لا جدال فيها ، ولكنها لم تتمكن فيما يبدو من فرض نفسها على الوعى الأوروبى . وتمثّل أسطورة النار والحديد أحد أوجه أهم فكرة نمطية ثابتة فى إطار المشاعر العدائية تجاه الإسلام Feindbildtopos ـ أى أن الإسلام والمسلمين جميعاً يتسمون أصلاً بالعنف والعدوانية ، وبذلك فهم يمثلون تهديداً للحضارة الغربية . ولم يتغير شىء من هذه الصورة منذ القرون الوسطى ، برغم كافة الخبرات التاريخية .

---

(12) قارن : كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى ، دار العلم للملايين ، بيروت 1981 (الطبعة التاسعة) ، ص 522 وما بعدها .

٧ـ الخبراء المزيفون[١٣]

وإذا كان المرء فى ذلك الوقت قد استمتع بتصوير محمد (ﷺ) كوحش شيطانى مخيف ، وبالروايات التى تصف المسلمين وهم يقطعون أطراف الصليبيين وهم أحياء ، وينزعون أحشاءهم من أجسامهم برافعة ـ فقد احتل مكان ذلك اليوم ما يطلق عليه «الكتب التخصصية» Sachbuecher التى تكشف عناوينها بصورة كافية عن مقاصد مؤلفيها ، مثل : «سيف الله» (Allahs Schwert) ، و«سيف الإسلام» (Das Schwert des Islam) ، و«السيف الأخضر» (Das gruene Schwert) ، إلخ .

ثم يأتى علاوة على ذلك الحديث عن «مشاعر الجماهير الإسلامية الحماسية التى لايمكن التنبؤ بها» (على حد تعبير الصحفى الألمانى شول لاتور Scholl-Latour)[١٤] ، تماما مثل الحديث عن

(١٣) اتفق العلماء على أن فرسان تشويه صورة العرب وتلطيخ سمعة الإسلام فى ألمانيا هم ثالوث الفساد : الصحفى الألمانى بيتر شول لاتور وزميله جيرهارد كونسلمان ، وثالثهم هو المهاجر السورى بسام طيبى كبير خبراء شتم العرب ولعن الإسلام .
راجع عن ثالوث الفساد هذا – الدراسة الممتازة التى قامت بها الباحثة Dorothee Boelke دوروتيه يولكه تحت عنوان Drei Mann in einem Boot: Der islamische Fundamentalismus bei Peter scholl-Latour, Gerhard Konzelmann und Bassam Tibi (ثلاثة فى قارب واحد : التطرف الإسلامى عند بيتر جول لاتور وجيرهارد كونسلمان وبسام طيبى) . وقد نشر هذا البحث فى :
Verena Klemm und Karin Hoerner (Hrsg.), Das Schwert des "Experten". Peter Scholl-Latours verzerrtes Araber- und Islambild. Palmyra Verlag, Heidelberg 1993, S. 200-228.

(١٤) راجع دراسة الباحثين الألمان عن تشويهات جول لاتور للإسلام : Verena Klemm und Karin Hoerner (Hrsg.), Das Schwert des "Experten". Peter Scholl-Latours verze'rtes Araber - und Islambild. Palmyra Verlage, Heidelberg 1993.

«الرغبة العربية فى تدمير الذات» . ويتم تقييم ١٤٠٠ سنة من التاريخ العربى بعبارات مثل : «إن حلم تأسيس وطن عربى كبير قد تبدّد منذ سنة ٦٢٢م ، بصورة متكررة مع المذابح والاغتيالات والثورات وأعمال العنف . لقد قضت نشوة القتل والاستشهاد فى مراحل متقطعة على محاولات بناء دولة مستقرة ذات توجهات عقلانية» . بغض النظر عن أن «حلم تأسيس وطن عربى كبير» لم يظهر منذ سنة ٦٢٢م ، ولكن على أكبر تقدير منذ نهاية القرن التاسع عشر ، تحت تأثير فكرة الدولة القومية الأوروبية[١٥] ، وهو ما يجعل ملاحظة الخبير السابق[١٦] لشئون الشرق الأوسط جيرهارد كونسلمان Gerhard Konzelmann لا أساس لها من الصحة التاريخية ـ تظهر هنا علاوة على ذلك ـ مثلما هو الحال عند مؤلفين كثيرين آخرين أيضاً ـ بجانب العنف ـ فكرة نمطية مبتذلة أخرى هى : الزعم بلا عقلانية المسلمين عامة والعرب خاصة .

٨ـ الغرب لا يفهم معنى الجهاد

إن ما يتخلل تبريرات الزعم بأن الإسلام هو دين عنف كنغمة أساسية هو فكرة الجهاد . يقينا يعتبر «الجهاد فى سبيل الله» فرضا على أمة الإسلام ، ويمكن أن يتخذ صورة الكفاح المسلح . والواقع

---

(١٥) عن الدولة القومية راجع : عبدالغنى غنوم ، مادة : دولة . فى : الموسوعة الفلسفية العربية ، معهد الإنماء العربى ، المجلد الأول ، بيروت ١٩٨٦ ، ص ٤٣٤ وما بعدها .

(١٦) انظر كتاب روتر الذى فضح فيه جهالات الصحفى الألمانى كونسلمان وتشويهاته فى الإسلام Genot Rotter, Allahs Plagiator, Palmyra Verlag, Heidelberg 1992

أن الجماعات الإسلامية المتطرفة قد أعلنت الجهاد شعارا لها ، لإضفاء صفة الشرعية الدينية على أعمالها الإرهابية . ولكن أين يحصل كبار علماء الدين الإسلامى فى وسائل الإعلام الغربية عل منبر ـ أو مجال أو فرصة ـ ليوضحوا من خلالها أن فريضة الجهاد المسلح تقتصر على حالة الدفاع فحسب؟ أو ليشرحوا أن «الجهاد فى سبيل الله» بالمعنى الأصلى للكلمة يعنى فرضاً أخلاقياً وروحانياً؟ وأن يشجبوا إرهاب الجماعات الإسلامية المتطرفة على أنه غير إسلامى البتة؟

٩ـ وجهة النظر الإسلامية

إن الاتهام الدائم الذى يوجهه الغرب إلى الإسلام بأنه فى الحقيقة دين عدوانى ، يُنظر إليه من جانب المسلمين على أنه نفاق صرف . وفى كتابات المتشددين المسلمين تُقلب هذه التهمة أيضاً وتوجه إلى الغرب . ويتم تبرير ذلك فى أغلب الأحوال بحقائق تاريخية محددة ، بداية من الحروب الصليبية ، ومروراً بالقضاء على المسلمين واليهود فى أسبانيا وطردهم منها ، وعبوراً بمحاكم التفتيش ، حتى عصرى الاستعمار والانتداب ، وانتهاء بتأسيس دولة اسرائيل (التى يُنظر إليها على أنها وليد الاستعمار الغربى الحديث) ، وسياسة الاقتصاد العالمى التى توصف بأنها استغلالية وامبريالية ، والتى يمارسها الغرب بمساندة بعض الحكومات المطيعة فى الشرق الأوسط . الشعار المتداول : البترول . كذلك فإن التدخل المستمر فى الشؤون الإسلامية أو العربية الداخلية ، مع ادعاء

الولايات المتحدة الأمريكية الهيمنة على الكرة الأرضية برمتها ، والذى يمكن استنتاجه على أبعد تقدير منذ حرب الكويت - كل ذلك يُفهم فى هذا السياق . وكون التهديد الجسدى للمسلمين من جانب المسيحيين مازال مستمراً بصورة عينية ملموسة ، فهو ما يقوم به الصرب فى الوقت الحاضر بممارستهم للتطهير العرقى فى البوسنة . وهى بالمناسبة حقيقة يحلو للصحافة العربية أن تنظر إليها على أنها فى الوقت الحالى آخر أعمال محاكم التفتيش .

١٠ـ المخاوف متبادلة

إن مخاوف الغرب بأنه مهدد من قبل العالم الإسلامى ، وهى مخاوف يتم تشجيع ترويجها عن قصد ، تقابلها مخاوف الشرق الأوسط من التهديد المستمر من قبل الغرب . فإذا استعرضنا تاريخ القرن العشرين بالذات والظروف السياسية الخاصة بسياسية القوة ، سنجد أن الخوف فى الحالة الثانية له ما يبرره ، لأن التهديد فيها حقيقى . ويصاحب الإحساس بالتهديد المادى إحساس آخر قوى بالتهديد من قبل الثقافة الغربية . ويقابل الوهم الغربى القائل بعدم عقلانية الشرقيين ، وهم المتشددين الإسلاميين القائل بالإنحطاط الروحانى للغرب . وهنا يتم التفريق بوضوح بين الاكتشافات الخاصة بعلوم الطبيعة من ناحية- والتى لا يُنظر إليها باعتبارها امتدادا منطقيا للمعارف والعلوم التى ورثها الغرب عن عرب القرون الوسطى . وهى اكتشافات يقبلها المسلمون ولا يعترضون عليها- ومن ناحية أخرى بين الفكر المادى الصرف الذى

يُنظر إليه على أنه فكر «منحط» وليس دينيا ، بل إنه ضد الدين ، وما يتبع ذلك من الإعلان عن انحلال المعايير الأخلاقية فى الغرب . ويعبّر كل من عالج هذه الموضوعات - على الأقل بين السطور- عن الخوف من فقدان الهوية الحضارية .

١١ ـ المرأة فى الإسلام

بجانب عدوانية الإسلام ، تحتل مكانة المرأة فى المجتمعات الإسلامية مقاماً متميزاً فى برنامج الغرب الخاص بصورة العدو الوهمى . وهذه أيضاً فكرة نمطية ثابتة Topos تعود جذورها إلى القرون الوسطى ، بيد أن بعض مظاهرها قد تغير كلية فى تلك الأثناء . فقد نتج عن التصورات الإسلامية الخاصة بالجنة ، وما فيها من حور العين ذوات البكارة الأبدية ، وكثرة زوجات النبى (ﷺ) ، والحق الشرعى لكل مسلم فى الزواج من أربع نساء ـ أن القرون الوسطى المسيحية صوّرت الإسلام على أنه الوليد الشهوانى للشيطان ، ومحمداً (ﷺ) على أنه وحش جنسى آثم . وهكذا كتب فى نهاية القرن الحادى عشر رئيس كاتدرائية مدينة ماينتس Mainz فى ألمانيا ـ ايمبريخو Embricho ، يقول إن المسلمين يحتفلون : «بجميع أشكال الزواج التى تحرمها الشريعة الإلهية . ولأنهم جرّدوك ، أيتها الطبيعة ، من حقوقك غصبا ـ تسعى المرأة إلى ممارسة السحاق مع نظيرتها ، ويمارس الرجل اللواط مع مثيله . بل وخلافاً للتقاليد يجامع الشقيق شقيقته ، ولا تمانع الأخت المتزوجة أن يباضعها أخوها الشيطان . الأبناء يهتكون عرض أمهم ،

والبنت تغتصب أباها . وكل ما هو محبب على هذا المنوال ، كانت الشـريعـة الجـديدة (الإسـلام) تحلله» . نظراً لمثل هذه الكتـابات السطحية الوضيعة ، لا يستطيع المرء أن يتخلص من الإحساس بأن هؤلاء الكتـاب قـد أرادوا إشبـاع تخيـلاتهم الجنسيـة الشـاذة من ناحيـة ، وسعوا من ناحيـة أخـرى إلى صرف الأنظار عن أوضاع معينة موجودة بالفعل فى الغرب المسيحى ، بما فى ذلك الأديرة المسيحية ، أو أنهم أرادوا توجيه الموعظة إلى الآثمين فى المجتمعات الغربية . وبالرغم من أن الإسلام لم يعد يتصدر تصوراتنا العدائية كمركز للدعارة الجنسية والفجور فى المقام الأول ، إلا أن لفظ «حريم» (Harem) مازال يلعب دوراً محدوداً فى هذا السياق . وكون نظام الزوجة الواحدة هو القاعدة ، وتعدد الزوجات هو الاستثناء ، فى العالم الإسلامى ، فهذه حقيقة لم تتمكن من التقليل من هذه الأفكار الخاطئة ، تماماً مثلما لم تقلل الإباحية الجنسية الموجودة بالفعل فى الغرب من تلك التصورات المشوهة عن الإسلام . وبالرغم من ذلك فلم يعد موضوع تعدد الزوجات هو أهم النقاط التى يهاجمها الغرب ، إذ احتل مكانه الفكرة النمطية الثابتة Topos الخاصة باضطهاد المرأة فى المجتمعات الإسلامية . إن الرواج المنقطع النظير الذى حققه كتاب بيتى محمودى Betty Mahmoody وفيلمها «ليس بدون ابنتى» (Nicht ohne meine Tochter) - يُرينا على أى تربة مخصبة بالأوهام وقع ذلك العمل الدنيء المشحون بالأقوال العنصرية .

١٢ ـ استراتيجية صرف الأنظار عن العيوب الذاتية

وهنا أيضا لا أستطيع أن أتخلص من الانطباع بأنه من خلال تقديم الزوج المسلم المعتدى على زوجته كقاعدة ، يريد الغربيون أن يجعلوا مثلاً من وجود «بيوت النساء» Frauenhaeuser المخصصة للزوجات المعتدى عليهن فى الغرب المسيحى نسياً منسياً . وحتى لا يُساء فهمى : فليس قصدى هنا هو الدفاع عن البنى الأبوية فى المجتمعات الإسلامية ، ولكن هدفى هو أن أوعّى وأوضح أن توظيف وضع المرأة المسلمة فى خلق صور مكررة ومبتذلة للعدو ، يبدو أنه يهدف فى الغالب إلى صرف الأنظار عما يقابل ذلك من العيوب الذاتية القائمة فى الغرب .

١٣ ـ رأى المسلمين فى مكانة المرأة فى المجتمع الغربى

كذلك فإن الوهم الغربى الخاص باضطهاد المرأة فى الإسلام ، أو التعصب المفرط للرجال ضد النساء المبنى على تفوق الرجل على المرأة Sexismus ، والذى يظهر بوضوح فى أنظمة الحريم ، له ما يقابله بصورة معاكسة فى تصورات المتطرفين الإسلاميين للغرب كعدو ، حيث تُصوّر المرأة فى الغرب على أنها مستغلة ، أو مسخَّرة جنسياً . وحق المرأة أن تسير فى الشوارع شبه عارية ، لا يُقيّم من وجهة النظر هذه على أنه حرية شخصية ، ولكن يُنظر إليه باعتباره إذلالاً وتحقيراً للمرأة . ويُوسم البغاء والمجلات والأفلام الجنسية على

أنها سمات انحطاط أخلاقى ، بهذه الصورة عن دور المرأة يتم الربط بوثاقة وإحكام بين انهيار البنى الأسرية وعزلة الإنسان فى الغرب . وتُبرز هذه الحقيقة على الأقل كأحد أسباب تعاطى المخدرات ، وارتفاع نسبة الانتحار فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية . وكما أن الحجاب قد أصبح بالنسبة للغرب رمزا لاضطهاد المرأة فى العالم الإسلامى ، فكذلك صار المتشددون المسلمون ينظرون إلى الملابس المثيرة للشهوة الجنسية على أنها رمز لإهانة المرأة ، وجعلها أداة للمتعة فى الغرب . كلتا الاستراتيجيتين لكى يحمّل كل طرف الطرف الآخر تهمة معاداة المرأة التى يمارسها هو بنفسه .

١٤ـ صورة الإسلام فى الغرب بعد انتهاء الحروب الصليبية

إن تصورات الغرب العدائية تجاه الإسلام لها جذور تبلغ من العمر ألف عام . والأصوات التى دعت إلى حوار سلمى بين الحضارتين كانت منذ القرون الوسطى حالات استثنائية ، أو اقتصرت على حلقات العلماء ، والتى وإن لم يعترف فيها بقيمة الدين الإسلامى ، إلا أن العالم العربى كان يُنظر إليه فيها بعين التقدير والاحترام . أما الرأى العام المتعارف عليه plebeia opinio ، فلم يتأثر بذلك . وبعد سقوط عكا ـ آخر قلاع الصليبيين ـ سنة ١٢٩١م ، وبسبب الحروب التى دارت داخل أوروبا اللاتينية ـ المسيحية ، اختفى السراسنة die Sarazenen ، كما كان العرب يُسمون فى ذلك الوقت ، إلى حد ما من الأفق

الغربى . وركز مفكرو النزعة الإنسانية[17] فى عصر النهضة[18] جهودهم على التراث الكلاسيكى القديم . وشمل احتقار العصور الواقعة بينهم كل ما هو عربى .

١٥ ـ حصار الأتراك فيينا وخوف الغرب من الإسلام

وظل الوضع هكذا ، حتى أحيا زحف الأتراك المتواصل نحو أبواب فيينا ، بعد فتح القسطنطينية (سنة ١٤٥٣م) ، سيناريو التهديد القديم مرة أخرى . وهكذا كتب مارتن لوثر Martin

---

(١٧) النزعة الإنسانية Humanism بالإنجليزية - و Humanısums بالألمانية : «هو تعبير شائع فى العلوم الإنسانية ، لكنه يستخدم بمعان مختلفة ، وأحياناً متناقضة . وإذا أردنا التعميم ، فيمكن وصفه بذلك التيار الفكرى الواسع الذى يسعى إلى التأكيد على القيم الإنسانية فى مواجهة القيم المادية أو الاقتصادية أو التقنية أو الدينية والعلوية عموماً . فى عصر النهضة كانت «النزعة الإنسانية» عبارة عن النزعة إلى تقديس العقل ، وإلى العودة إلى الثقافة القديمة ، أى تجاوز ثقافات القرون الوسطى الدينية واللاهوتية . و«النزعة الإنسانية» عموما هى نزعة إلى اعتبار الإنسان مقياساً للأشياء . وبالنسبة للبعض ، هى التأكيد على أن الإنسان يستطيع بقواه الخاصة أن يصل إلى الخلاص» .

- انظر : سامى ذبيان وآخرون ، قاموس المصطلحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، رياض الريس للكتب والنشر ، لندن ١٩٩٠ ، ص ٧٣ .

(١٨) عصر النهضة : renaissance «العصر الذى بدأ منذ انتهاء العصور الوسطى حتى العصر الحديث ، وامتاز بحركة إحياء الفنون والآداب» .

- انظر : أحمد زكى بدوى ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ، مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٨٦ ، (الطبعة الثانية) ، ص ٣٥٤ .

- وراجع أيضاً مادة . فلسفة النهضة (فكر أوروبى) ، بقلم محمد سبيلا . فى الموسوعة الفلسفية العربية ، المجلد الثانى ، الجزء الثانى ، معهد الإنماء العربى ، بيروت ١٩٨٨ ، ص ١٠٣٤ وما بعدها .

Luther (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦ م) ـ الذى كان يعتبر الإسلام العدو الخارجى ، والبابا العدو الداخلى ـ سنة ١٥٤١م «دعوة للدعاء على الأتراك» (Vermanungen zum Gebet wider den Tuerken).

١٦ـ صورة الإسلام فى عصرى التنوير والرومانسية

مع الروح المتسامحة لعصر التنوير Aufklaerung (بداية من القرن السابع عشر)[١٩] من ناحية ، وروح عصر الرومانسية Romantik (١٧٦٠ ـ ١٨٣٠)[٢٠] المتميزة بالحماسة والهيام من ناحية أخرى ، وكذلك مع حركة الاستشراق التى كانت تتطور ببطء ، بدا وكأن الغربيين قد تجاوزوا تصوراتهم العدائية تجاه الإسلام . وحتى الدين الإسلامى أصبح يُنظر إليه الآن أحياناً نظرة إيجابية . وهكذا كتب لايبنيتس Leibniz[٢١] سنة ١٧١٠

(١٩) فلسفة التنوير Aufkaerung : «حركة فلسفية بدأت فى القرن الثامن عشر ، وتتميز بفكرة التقدم ، وعدم الثقة بالتقاليد ، وبالتفاؤل والإيمان بالعقل ، وبالدعوة إلى التفكير الذاتى ، والحكم على أساس التجربة الشخصية» .
– انظر : المعجم الفلسفى ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ١٣٩ .

(٢٠) رومانسية فلسفية : Philosophical romanticism : «مذهب جماعة من فلاسفة الألمان ظهروا فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، وعلى رأسهم فيتشة وهيجل . ويعارض هذا المذهب الآراء السائدة فى القرن الثامن عشر ، وبخاصة مذهب التنوير ، ويعول على العاطفة والحدس والحرية . ويستهين بالقواعد الجمالية والمنطقية ، ويعتد بفكرة الحياة واللامتناهى» .
– انظر : المعجم الفلسفى ، معجم اللغة العربية ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ٩٣ – ٩٤ .

(٢١) راجع عن لايبنيتس : عبدالرحمن بدوى ، موسوعة الفلسفة ، الجزء الثانى ، ص ٣٨٧ وما بعدها .

فى كتابه عن نظرية العدل الإلهى Theodizee ، يقول : «أيضاً محمد (ﷺ) Mahomet لا يبتعد عن هذه القواعد الأساسية للدين . وقام أتباعه بنشرها بين شعوب أقاصى آسيا وأفريقيا ، التى لم تكن المسيحية قد وصلتها بعد . وقضوا فى كثير من البلدان على الخرافات الوثنية التى كانت تتعارض مع المذهب الصادق للتوحيد الإلهى وخلود النفس» .

١٧ ـ ليسينج وروكرت وجوته يمتدحون العرب

ويمثل بعد ذلك كل من ليسينج Lessing (١٧٢٩ ـ ١٧٨١م) ، وروكرت Rueckert (١٧٨٨ ـ ١٨٦٦م)[٢٢] وجوته Goethe (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢م)[٢٣] فى الأدب الألمانى قمم نظرة تمجيدية صريحة للشرق . تحدث جوته عن العرب بحماس وهيام ، ولكن حماسه هذا فتر عندما تعرض لمحمد (ﷺ) ، لأنه : «نصب حول العرب غلافاً دينياً كئيباً ، وعرف كيف يحجب عنهم الأمل فى أى تقدم حقيقى»[٢٤] . ولكن «الرأى العام» ، المسمى اليوم plebeia opinio (رأى العامة) ، لم يتأثر بهذه العقليات المستنيرة .

(٢٢) عن رويكرت انظر : عبدالرحمن بدوى ، موسوعة المستشرقين ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٩ (الطبعة الثانية) ، ص ٢٠٠ - ٢٠٢ .

(٢٣) انظر عن جوته : جيته ، الديوان الشرقى للمؤلف الغربى ، ترجمة عبدالرحمن بدوى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٠ (الطبعة الثانية) . ص١ وما بعدها .

(٢٤) راجع : Johann Wolfgang von Goethe, Werke Kommentare und Register, Hamburger Ausgabe in 14 Bänden, C. H. Beck, München 1981 (12. Auflage), Bd. 2. S. 139 ff.

- وقارن أيضاً : جيته ، الديوان الشرقى للمؤلف الغربى ، ترجمة عبدالرحمن بدوى ، ص ٣٧٥ .

١٨ ـ صورة المسلمين عند الكاتب الألمانى كارل ماى

وأحسن دليل على ذلك هو نجاح أعمال الكاتب الشعبى كارل ماى Karl May (١٨٤٢ ـ ١٩١٢م)[٢٥] الذى طبع صورة الشرق لدى أجيال برمتها من الناطقين بالألمانية . وفى صورة الشرق هذه إذا غضضنا النظر عن بعض الشخصيات الغريبة والساذجة ـ يظهر المسلمون بالذات كأشخاص محتالين ، وحشيين ، متجهمين ، ينتصر عليهم كارا بن نيمسى Kara Ben Nemsi المجاهد فى سبيل المسيح . ويظهر عند كارل ماى إحساس الأوروبيين بالتفوق الذى كان فى تزايد مستمر منذ دخول نابليون مصر على أبعد تقدير . وفضلاً عن ذلك يعتقد الأوروبيون فى هذا السياق أنهم ملزمون بالقيام بمهمة حضارية تجاه الشرق .

١٩ ـ من أسباب خوف الغرب من الإسلام

كان من الطبيعى أن يختفى عنصر التهديد من التصورات العدائية تجاه الإسلام فى عصرى الاستعمار والانتداب ، بسبب تفوق الغرب تكنولوجياً وعسكريا . وبالرغم من استمرار هذا التفوق حتى يومنا هذا ، إلا أنه قد تم إعادة إحياء عنصر التهديد هذا فى

(٢٥) كارل ماى Karl May (١٨٤٢ - ١٩١٢) : كاتب ألمانى تخصص فى قصص المغامرات الخيالية . وتدور مغامراته هذه فى دول لم يكن قد زارها من قبل ، وخاصة أمريكا الشمالية ومنطقة الشرق الأوسط .

- راجع : Der grosse Knaur, Buchclub Ex Libris, Zuerich 1967, Bd. 3, S. 198.

العقود الأخيرة من جديد . ويعود ذلك فى المقام الأول إلى أربعة أسباب رئيسية . أولها : زوّد الغرب والكتلة الشرقية سابقاً دولَ الشرق الأوسط وشمال أفريقيا التى نالت استقلالها بكميات هائلة من أنظمة التسليح الحديثة ، ومستلزماتها من التكنولوجيات المتقدمة ، والتي يمكن استخدامها الآن - على الأقل من الناحية النظرية - أيضاً ضد أوروبا - أو على الأقل ضد المصالح الأوربية والأمريكية فى الشرق . اللفظ المتداول : القنبلة الذرية الإسلامية . ثانياً : إن هجرة أعداد كبيرة من المسلمين - والتى شجعها الغرب فى البداية - حيث يمثل الأتراك فى ألمانيا ، ومواطنو شمال أفريقيا فى فرنسا غالبية العمال المهاجرين وطالبى اللجوء السياسى - أدت إلى تصاعد موجة العداء تجاه الأجانب . وهو عداء موجه فى المقام الأول ضد المسلمين ، ويركز على رموزهم الإسلامية . التعبير المتداول : «مسألة الحجاب» . ثالثاً : أدت التوترات الاجتماعية والاقتصادية ، وكذلك أزمة الهوية الحضارية ، وفشل الإيديولوجيات المستوردة من الغرب مثل القومية والاشتراكية - عند طبقات اجتماعية معينة فى الشرق الأوسط إلى إحياء معايير ورموز إسلامية . بيد أن الخصم في هذه الحالة كان الأوساط الحاكمة فى تلك الدول ذاتها . وفى مقابل ذلك يشعر الغرب بأنه هو المستهدف الحقيقى . اللفظ المتداول : التطرف الإسلامى . رابعاً : إن زوال صورة العدو من الصراع القديم بين الشرق والغرب ، قد أيقظ - كما سبقت الإشارة فى البداية - الرغبة لدى أوساط معينة فى الغرب ، لإيجاد عدو جديد . ولما كانت صورة الإسلام كعدو مستترة أو كامنة فى الغرب منذ ألف سنة على الأقل ، فقد كان من السهل إحياؤها مرة أخرى .

٢٠ـ خاتمـــــة

لقد شجع بطرس المبجل [٢٦] - رئيس دير مدينة كلونى - إنجاز أول ترجمة للقرآن سنة ١١٤٣م - وكان الهدف المعلن لهذه الترجمة هو محاربة الإسلام عن طريق دحض قواعده . وهو ما يعتبر مع ذلك تقدماً هائلاً . كتب بطرس مخاطباً المسلمين : «إننى أهاجمكم - ليس بالسلاح ، ولا بالعنف - مثلما اعتاد أصحابنا أن يفعلوا - ولكن بالعقل ، ليس بالكراهية ، ولكن بالحب» . إن الغرب سيكون قد حقق الكثير فى علاقته بالحضارة الأكثر قرباً له ، وبالرغم من ذلك غريبة عليه ، إذا توصل إلى حوار معها يخلو من الكراهية والعنف .

(٢٦) قارن : Norman Daniel, Islam and the West, Oneworld, Oxford 1993, P. 36 ff.

صدر من سلسلة (فى التنوير الإسلامى)

١ - الصحوة الإسلامية فى عيون غربية .	د . محمد عمارة
٢ - الغرب والإسلام .	د . محمد عمارة
٣ - أبو حيان التوحيدى .	د . محمد عمارة
٤ - دراسة قرآنية فى فقه التجدد الحضارى .	د . سيد دسوقى
٥ - ابن رشد بين الغرب والإسلام .	د . محمد عمارة
٦ - الانتماء الثقافى .	د . محمد عمارة
٧ - تنصير العالم .	د . زينب عبد العزيز
٨ - التعددية الرؤية الإسلامية والتحديات .	د . محمد عمارة
٩ - صراع القيم بين الغرب والإسلام .	د . محمد عمارة
١٠ - د . يوسف القرضاوى : المدرسة الفكرية . والمشروع الفكرى .	د . محمد عمارة
١١ - تأملات فى التفسير الحضارى للقرآن الكريم .	د . سيد دسوقى
١٢ - عندما دخلت مصر فى دين الله .	د . محمد عمارة
١٣ - الحركات الإسلامية رؤية نقدية .	د . محمد عمارة
١٤ - المنهاج العقلى .	د . محمد عمارة
١٥ - النموذج الثقافى .	د . محمد عمارة
١٦ - منهجية التغيير بين النظرية والتطبيق .	د . صلاح الصاوى
١٧ - تجديد الدنيا بتجديد الدين	د . محمد عمارة
١٨ - الثوابت والمتغيرات فى اليقظة الإسلامية الحديثة .	د . محمد عمارة
١٩ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم .	د . محمد عمارة
٢٠ - التقدم والإصلاح بالتنوير الغربى .	د . محمد عمارة
٢١ - فكر حركة الأستنارة . . وتناقضاته .	د . عبد الوهاب المسيرى

٢٢ – حرية التعبير فى الغرب من سلمان رشدى إلى روجية جارودى .	د . شريف عبد العظيم
٢٣ – إسلامية الصراع حول القدس وفلسطين .	د . محمد عمارة
٢٤ – الحضارات العالمية تدافع؟ . . أم صراع؟	د . محمد عمارة
٢٥ – التنمية الاجتماعية بالغرب ؟ . . أم بالإسلام؟	د . عادل حسين
٢٦ – الحملة الفرنسية فى الميزان .	د . محمد عمارة
٢٧ – الإسلام فى عيون غربية . . دراسات سويسرية	ترجمة ا . ثابت عيد
٢٨ – الأقليات الدينية والقومية تنوع ووحدة . . أم تفتيت واختراق .	د . محمد عمارة
٢٩ – ميراث المرأة وقضية المساواة .	د . صلاح الدين سلطان
٣٠ – نفقة المرأة وقضية المساواة .	د . صلاح الدين سلطان
٣١ – الدين والتراث والحداثة والتنمية والحرية	د . محمد خاتمى
٣٢ – مخاطر العولمة على الهوية الثقافية	د . محمد عمارة
٣٣ – الغناء والموسيقى حلال أم حرام ؟؟	د . محمد عمارة
٣٤ – صورة العرب فى أمريكا .	ترجمة وتعليق ا .ثابت عيد
٣٥ – هل المسلمون أمة واحدة ؟؟	د . محمد عمارة
٣٦ – السنة والبدعة .	تقديم وتحقيق د .محمد عماره
٣٧ – الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان .	تقديم وتحقيق د .محمد عماره
٣٨ – قضية المرأة بين التحرير والتمركز حول الأنثى .	د . عبد الوهاب المسيرى
٣٩ – مركسة الإسلام .	ا . منصور أبو شافعى
٤٠ – الإسلام كما نؤمن به . . ضوابط وملامح .	د . يوسف القرضاوى
٤١ – صورة الإسلام فى التراث الغربى .	ترجمة ا . ثابت عيد

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

إلى القارئ العزيز ..

في هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربي» هو تنوير علماني، يستبدل العقل بالدين، ويقيم قطيعة مع التراث ..

فإن «التنوير الإسلامي» هو تنوير إلهي، لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار، تصنع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامي للقراء، تصدر هذه السلسلة التي يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامي المعاصر :

- د . محمد عمارة
- المستشار طارق البشر
- د . حسن الشافعي
- د . محمد سليم العـ
- أ . فهمي هويدي
- د . يوسف القرضاو
- د . سيد دسوقي
- د . كمال الدين إمـ
- د . عبدالوهاب المسيري
- د . شريف عبد العظ
- د . عادل حسين
- د . صلاح الدين سلط

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..

إنه مشروع طموح، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر